

الفصل الثالث

البطل القومي
والوعي بحركة التاريخ

(٩)

لا نبالغ إذا قلنا أن التراث الشعبي كله يحتشد في ذهن الباحث عندما يشرع في كتابة موضوع يدور حول نموذج البطل ووعي الجماعة؛ ذلك أن نموذج البطل يعد في النهاية بلورة لقيم الجماعة ورصيدها الحضارى، كما يعد تجسيدا لموقفها من التاريخ؛ أى من الماضى والحاضر والمستقبل.

وإذا كانت الشعوب جميعا يرسخ في ضميرها كما يثبت في تراثها الأدبى وربما التشكيلى نماذج بطولية بعينها، فإنه يترتب على هذا أن ينقسم بحثنا فى نموذج البطل فى تراثنا العربى بالضرورة إلى شقين، شق عالمى، وشق محلى.

أما الشق العالمى، فنحاول أن نستكشف من خلاله النسيج الذى يصنع منه نموذج البطل بصفة عامة، وأما الشق المحلى فنحاول أن نحدد فيه خصوصية البطل العربى من خلال أربعة محاور: المحور الدينى، والمحور التاريخى، والمحور الحضارى، والمحور اللغوى.

وعلى الرغم من أن هذه المحاور لا غنى عنها فى بحث نموذج البطل عند أى شعب من الشعوب، فإننا نقصر البحث فيها على الجانب العربى، حيث أننا نهدف أولا إلى إبراز خصوصية نموذج البطل فى التراث العربى.

فمم ينسج نموذج البطل فى التراث الجماعى بصفة عامة ؟
أولاً: إن أوضح لحمة فى نسج البطل تمثيله للقيم الجماعية.
على أننا نقف لتساءل: وما القيم الجماعية ؟ بل ما القيمة فى حد ذاتها ؟ وعلى أى أساس يكون هناك تعارض أو اتفاق بين القيم الجماعية والرغبات الفردية ؟.

لنبداً بتعريف القيمة، ولنبدأ بالمعنى المعجمى للكلمة. وهنا نجد أن مصطلح القيمة فى اللغة العربية، وفى غيرها من اللغات المعروفة لدينا، يتحدد بالشئ القيم أو الثمين. فهى الإنجليزية value، وفى الفرنسية valeur، وفى الألمانية wert، والشئ القيم أو الثمين يرتبط دائماً بجودته، وربما ندرته، كما أنه يرتبط بعدم الإسراف فى استعماله، ولهذه الأسباب كلها فإن الشئ القيم يكون أقرب إلى المثال الذى يطمح إليه الإنسان. على أنه إذا كانت القيم تقترب من الأشياء القيمة بمشاركتها إياها فى هذه الصفات، فإنها تعود وتبتعد عنها لارتباطها بالمعنويات لا بالحسيات.

وهنا تتمثل صعوبة تحديد معنى القيمة أو بالأحرى مفهومها. ولا بد لنا لكى نصل إلى هذا التحديد من أن نبدأ من البداية لنرى كيف تتكون القيمة.

ترتبط القيمة بالفعل، كما يرتبط الفعل بالرغبة، وهذه بدورها ترتبط بالدوافع، ومعنى هذا أن الفعل لا يتم إلا بدوافع يتولد عنها الرغبة فى تحقيقه. وهنا يرتبط الفعل بعامل آخر هو عامل الحرية، إذ إن الفعل الذى يرغب الإنسان فى تحقيقه لا يتم إلا بمحض إرادة الإنسان.

على أننا لا نستطيع، عند هذا الحد، أن نرى للفعل قيمة ما لم ندخل، مع كل هذه العوامل الباعثة عليه، عاملا آخر مهما، هو السبب الذى يبرر الفعل، وليس السبب هو الدافع، حيث أن الدافع ذاتي، فى حين أن السبب عقلاني وموضوعي؛ أى أنه يقع خارج الشخص.

وهنا نعود مرة أخرى إلى قضية الحرية، ولكننا نعود إليها فى هذه المرة لا لنراها بمعناها المطلق، بل بمعناها المحدد بالافتتاح بالأسباب التى ترجع فعلا على آخر، بصرف النظر عن الرغبة الذاتية؛ فقد يحدث أن تكون الأسباب مقنعة للشخص، ولكنها قد تكون فى الوقت نفسه ضد رغباته.

ولكن، إلى أى حد يمكن أن تستجيب الرغبة الشخصية للأسباب العقلية الموجهة لفعل بعينه؟ وبتعبير آخر، إلى أى حد تكون الأسباب العقلية موجهة لرغبات الإنسان؟ هنا يتحتم علينا مرة أخرى أن نفرق بين الأسباب التى تنبع من الشخص ذاته ويجدها مبررة لفعله، وتلك التى تحمل قيمتها بعيدا عن الفرد، ففى الحالة الثانية يكون للفعل المبني على أسباب عقلية قيمة فى حد ذاته. ومن هذه الأفعال الأخيرة تتولد القيم، حيث أن هذه الأفعال تحتكم إلى العقل أولا؛ ولهذا فإنها تتسم بالدوام لا بالآنية، ويترتب على هذا أن الأشخاص العقلانيين القادرين على أن يجعلوا دوافعهم ورغباتهم غير مؤقتة، بل ممتدة بحيث تشغل حيز حياتهم، يصلون فى النهاية إلى تحديد الأفعال ذات القيمة الثابتة، إذ أنهم يبنون أفعالهم على اعتبارات خارجية، وليس وفقا لرغبات شخصية. وعندما يكون الفعل على هذا النحو مبنيا على أساس من الأسباب العقلية،

فإنه لا يكون وليد الرغبة الشخصية، بل إن الرغبة الشخصية هي التى تتولد عنه، لأنها تتولد من اكتشاف قيمته.

ومن حصيلة السلوك الذى يختار من الأفعال التى تدعمها الأسباب، تتكون مجموعة القيم التى ترتبط بحقائق الحياة، لابتصورات الأفراد ومعتقداتهم.. ولهذا فإن من أهم لوازم القيم ارتباطها بالمستقبل. أكثر من ارتباطها بالحاضر. وهذا الكلام ينطبق على القيم الجمالية بقدر ما ينطبق على القيم الأخلاقية. فالقيم الجمالية تقع كذلك خارج الإنسان، وتظل على هذا النحو إلى أن يكتشفها الإنسان ويحسها ويتعلق بها.

وعندئذ تتحول إلى حس داخلى، ولكنها تظل، على الرغم من ذلك محتفظة بوجودها الخارجى.

ويرتبط بهذا المفهوم الإيجابى للقيمة، أن القيمة ضد الشر؛ لأن الشر ما يراه الإنسان غير معقول، ومن ثم فهو يتنافى مع خطة الحياة التى تنظم لها القيم؛ فالقيمة قيمة من حيث أنها تجعل الإنسان كائنا واعيا وفعالا، ومدفوعا إلى التجارب وأداة للتجارب فى الوقت نفسه.

وعندما يكون الإنسان كائنا حيا له وظيفة فعالة فى الحياة فإنه يسعى إلى إلغاء الشر الذى يتمثل فى فقدانه الحرية. وسلبه الفرص التى تؤكد ذاتيته.

ونعود إلى بداية الحديث عن القيمة لنؤكد أنها فى ارتباطها بجذورها اللغوى، تعد جوهرها ثمينا ينحو بالإنسان إلى المثالية التى تتجسد فى النهاية فى نموذج البطل. وعندما يرسخ هذا النموذج فى ضمير الجماعة ويظل حيا معها، يصبح الصيغة المثالية التى يتعامل

الفرد من خلالها مع نفسه ومع الجماعة ومع الأشياء والأحداث. ولأن هذه الصيغة المثالية افتراض معيارى فى مقابل الافتراض الوجودى، فإن رسوخها يرجع إلى أساسها المعرفى المبنى على معايير القيم الموروثة^(١).

ثانيا: من هذا المفهوم للقيم التى تعد البناء الأساسى لتكوين البطل، تنتقل إلى عنصر أساسى آخر فى نسيجه وهو الرمزية.

فإذا كانت القيم لا تتكون إلا من خلال الإطار المعرفى لجوهر الثقافة الموروثة، وإذا كان الإنسان لا يتعامل مع حصيلة ثقافته الموروثة إلا من خلال تشكيلات رمزية، لغوية كانت أم غير لغوية، فإننا نضيف إلى ما سبق من كلام عن القيم، أن القيم تصبح فى النهاية شفرة من الرموز التى تركز على أساس معرفى ويفهمها الجميع وهذه الشفرة تمثل، كما ذكرت، نماذج معيارية للسلوك، وذلك فى مقابل المعتقدات والعادات التى تمثل نماذج وجودية للسلوك. والفرق بين النموذجين، المعيارى والوجودى، هو الفرق بين الواقع والمثال.

وعندما يعيش الإنسان حالة من التوتر بين داخله وخارجه، ويسعى إلى الوصول إلى موقف يصلح بينهما، دفعا لعجلة الحياة من ناحية، وتأكيدا للذات من ناحية أخرى، عندئذ تقفز فى ذاكرته القيمة الفعالة التى تحتوى على نماذج للبدائل السلوكية، وعندئذ يعمق المغزى القيم، ويصبح أكثر تعميما.

E. G. Bond: Reason and Value, Mass. Cambridge University Press, (١) 1983, p. 84.

وإذا كانت النماذج الجاهزة الموصلة للقيم متنوعة، فإن أهمها وأكثرها وضوحاً هو نموذج البطل القومي الذى يصنعه الشعب على نحو معقد ومكثف. وهو معقد ومكثف لأنه يمثل الإنسان فى صورته الكلية لا الجزئية، فالإنسان فى الصيغة التى هو عليها فى الحياة ليس سوى جزء من الصورة الكلية للإنسان، بل إنه فى صيغته الجزئية يعد تشويشاً للصورة الكلية. أما الإنسان بالمعنى الكلى فلا يوجد إلا فى جسم المجتمع كله. ومن هذه البنية الكلية تعلم الإنسان الفرد الكلام والعمل والقيم والثقافة الموروثة؛ ولهذا فإن جوهره لا يتكشف إلا من خلال الإنسان الكلى، أى الجماعة. والبطل هو التشكيل النموذجى الذى يجمع فى تكوينه الفرد والمجتمع بل الكون. ومهما تنوعت صورة البطل واختلفت تفاصيل رحلة حياته، فهو مدفوع إلى تغيير المصير الإنسانى على المستويين الفردى والجماعى. ولهذا كان البطل الجمعى رمزاً كبيراً، كما أن الإنسان يتعامل معه بوصفه رمزاً للوجود الذى يكون هو فيه المبدع والمخرب. والعبد والسيد، والجزئى والكلى^(١).

ثالثاً: والبطل بهذا المفهوم لا يعد تجسيدا ثابتاً، كما أن الجماعة لا تتمثله على نحو جامد، بل إن البطل فيه من المرونة ما يقبل التغيير والتشكيل الجديدين، وما يقبل دلالات جديدة تتفق مع طموحات العصور المختلفة. ولهذا فإن النماذج البطولية تبدو كأنها يتولد بعضها من بعض، بل قد يختلط بعضها ببعض بحيث تبدو كأنها تكوين فكري وبنائى واحد.

(١) المرجع السابق، ص ١٠٤.

ويمكننا أن نؤيد هذا القول من خلال نص حديث كنا نود أن نرجعه إلى حين أن نتحدث عن الامتداد التاريخي للبطل الشعبي العربي، ولكننا نجد النص مناسباً في هذا المقام الذي نتحدث فيه عن قابلية النموذج البطولي لأن يتوحد في غيره. وهذا النص نستمدّه من قصة «الشاطر حسن» للشاعر فؤاد حداد. لقد نجح الكاتب في محاكاة القصة الشعبية التي تدور حول شخصية الشاطر حسن بما لها من رصيد موفور وقديم في القصص الشعبي العربي المروي، وفي الالتزام بتتابع أحداثها، مع توظيف اللغة في التعبير عن رؤيته الفردية. على أن ما يهمنا في هذا المقام هو كيف وحد الشاعر بين بطولة الشاطر حسن وبطولات عربية أخرى، فقد كان للشاطر حسن مهرة سوداء بزين جبينها هلال أبيض، وهو الهلال نفسه الذي انطبع على جبين الشاطر حسن بعد أن انتصر على أعداء والد محبوبته ست الحسن. وسرعان ما يستدعي هذا الهلال البطل أبا زيد الهلالي، فيتوحد عندئذ البطلان: الشاطر حسن وأبو زيد الهلالي. يقول الشاعر:

موالى أخضر وقلبي دفته خضرا
ومهرتي من سواد الليل وأنا فارس
هلالى زى الهلالي فى تونس الخضرا

على أن هناك قرينة أخرى يمكن أن توحد بين الشاطر حسن وبطل آخر هو عنتره والقرينة في هذه الحالة هي سواد المهرة. يقول الشاعر:

« شاطر حسن يا أنشطر الشطار، تسمح لي أن الشاعر أقف وقفة. وأجيب ورقة وأمول حبتين، أقول ياليل ياعين وباولدى، وأنا بدافع يابا عن بلدى، وأنا بجمالك يابطل مخطوف، قلبى عليك بيطوف، عينى ترقبك. لسانى يحن ويقول فيك: على مهرته السودا سواد الليل شاطر حسن أسود سواد العين، عنتر وعنتر، عنترين»^(١).

فالبطل القومى لا يخضع للزمن الحساسى، بل هو شعلة الحاضر فى أى زمن كان، وهو حاضر دائما لكى يحدث للفرد توازنه مع نفسه ومع مجتمعه.

رابعاً: البطل الشعبى القومى نسيج من الوجدان الجمعى. ذلك أن كل مجتمع يعتمد فى بقائه على حضور مجموعة من النظم الوجدانية التى تربط بين أفرادها برباط وثيق. ولا سبيل للتعبير عن هذا الوجدان الجمعى إلا من خلال المشاركة الجماعية فى تشكيلات جمالية تحرر الفرد من الضغوط النفسية ودواعى القلق من ناحية، وتجعله يستشرف الإحساس بالجمال من ناحية أخرى. وعلى الرغم من أن الدافع الأساسى وراة خلق التشكيلات الجمالية هو الإحساس الباطنى بانهزام الفرد أمام القوى القاهرة. فإنه لا يلبث أن يستعيد ثقته فى الحياة، بل إنه يحس أنه قد غنمها الغنم كله من خلال المشاركة الجماعية فى تعبير جمالى واحد. وعندما يكون شكل التعبير هو القص الشعبى، فإن البطل يجسد عندئذ النشاط الوجدانى للجماعة، ذلك النشاط الذى يهدف إلى تحرير الفرد من قيده الداخلى بقدر ما يهدف إلى دمج فى مغزى الوجود الكلى.

(١) فؤاد حداد: الشاطر حسن - دار الكاتب العربى ١٩٦٨، ص ٣٧.

وسواء كان البطل تاريخياً أو خيالياً. فهو فى كلتا الحالتين مصنوع من الوجدان الجمعى. ولهذا فهو يمثل النموذج القديم الذى يتحرك فى مستويين زمانيين فى آن واحد: الزمن الماضى الذى يحكى عنه، وزمن القص فى لحظة الحاضر، أى أنه نموذج يستوعب الماضى بقدر ما يستوعب الحاضر. ولهذا فربما كان أهم حدث يتحرك حوله الوجدان الجمعى فى حياة البطل هو تلك اللحظة التى يقف فيها البطل على عتبة بين الماضى والمستقبل. أما الحاضر فلا يتمثل عندئذ إلا فى لحظة قلق سرعان ماتنجلى بإشراقه التوقع فى أى شكل من الأشكال. وعندئذ يندفع البطل فى حركته متجاوزاً لحظة الإحساس بالتهديد قبل أن يقع فى أسرها. وبهذا يكون البطل مجسداً للمصير الإنسانى الذى تلاحقه صنوف شتى من وسائل التهديد. ولكن الإنسان. على الرغم من شعوره بضعفه أمام هذه الوسائل المهددة لحياته، يشعر فى الوقت نفسه بقدرة فائقة تأبى له الاستسلام لهذا المصير، وتدفعه لتحقيق المعجزات الشبيهة بالمعجزات التى يحققها البطل.

(٢)

هذه هى العناصر الأساسية العامة التى يتشكل منها النموذج البطولى بصفة عامة. فما خصوصيات البطل العربى؟ ونحن نعى بطبيعة الحال البطل أو الأبطال الذين رسخوا فى ضمير الشعب العربى وتحركت معه فى تاريخه وفى تشكيلاته الفنية منذ القدم حتى العصر الحديث. ولكى نتضح تلك الخصوصية لابد أن نتحدد فى الأطر التاريخية والدينية والحضارية واللغوية لكل شعب. ولنبدأ بالإطار التاريخى والدينى فى المفهوم العربى.

أولا - البطل والتاريخ والدين :

تغير مفهوم التاريخ بالنسبة للإنسان العربى بعد أن أصبح الإسلام ديننا للجزيرة العربية. وعندئذ لم يعد التاريخ مجرد أحداث مفرغة من المعنى. كما كان الحال فى العصر الجاهلى، بل أصبح التاريخ مرتبطا كل الارتباط بهذا الحدث الكبير. إذ كان موجها به وإليه. والأسطورة التى أوردها السيوطى فى «مزهرة» (حـ ١ ص ١٦٤ ط الحلبي) تؤكد هذا المعنى^(١).

والدلالة البعيدة لهذه الأسطورة هى أن الإنسان العربى لم يكن قبل الإسلام مسؤولا عن تاريخه، بل كان التاريخ يملغه من خلال النبوة. عن طريق وسيط بينه وبين القوى الغيبية، وهو النسر. ولهذا كان يتحتم عليه أن يسترضى هذا الوسيط وأن يجدد له شبابه فى آن واحد بأن يقدم إليه فتاة بكرا مرة فى كل عام، وبذلك يضمن الحصول على النبوة بأحداث المستقبل.

ثم قتل النسر، وكان قتله معناه اختفاء الوسيط، ولم يبق أمام العربى عندئذ سوى أن يصنع تاريخه بنفسه، ولكن اشتعال الحرب بين القبيلتين لم يكن سوى حدث من بين مئات الأحداث التى تكررت من قبل دون أن تودى إلى شئ من التطور. ولهذا كان هذا الحدث، شأنه شأن غيره، غير ذى معنى؛ ولهذا فقد جاء الإسلام وحجر بين القبيلتين لينتهى الصراع التقليدى بين القبائل، ويبدأ التأريخ بالتاريخ الإسلامى.

(١) د. عفت الشرقاوى: أدب التاريخ عند العرب، انظر فصلى مغزى التاريخ والتفسير القرآنى للتاريخ

وفى قلب هذا التاريخ الإسلامى يقف المثل الأعلى للبشر وهو الرسول عليه السلام، كما يقف صحابته. الأبطال الأوائل. إلى جانبه. وكان الحيد عن النظام الذى رسموه لحياتهم فى حذر بالغ فى بداية الأمر.

يحكى أن عمر بن الخطاب عند قدومه إلى الشام لقي معاوية فى أبهة الملك وزيه من الحديد والعدة. فاستنكر ذلك وقال له: أكسروية يا معاوية؟ فقال: يا أمير المؤمنين. إنا فى ثغر تجاه العدو. وبنا إلى مباہاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة. فسكت ولم يخطئه. لما احتج عليه بمقصد من مقاصد الحق والدين^(١).

نعم، لم يستطع أن يقول عمر بن الخطاب شيئا، لأن معاوية احتج عليه كما يقول ابن خلدون، بمقصد من مقاصد الحق والدين. ولكن مافعله معاوية. على الرغم من ذلك، كان بداية التحول الحضارى الذى اتسع نطاقه فيما بعد. ولكن عامل التوازن القوى تمثل فى ثبوت المثال فى شخص الرسول عليه السلام وفى صحابته، وثبوت الهدف من الحياة وهو الحق والدين.

(٣)

وكانت الذاكرة العربية قد اختزنت نماذج من البطولات القديمة بالإضافة إلى نماذج من الأفعال التى لم تكن تتذكر إلا لكونها - بالقياس إلى القيم الجديدة - تمثل أفعالا نموذجية فى خيرها أو فى شرها. وبدأ الحاضر يستدعى الماضى على نحو ما يقتطع الحلم

(١) ابن خلدون: المقدمة، القاهرة، المكتبة التجارية (بدون تاريخ)، ص ٢٠٣.

مشاهد من الماضي ليؤكد بها الحاضر ويشير بها في المستقبل .
وعندئذ بدأت عملية المقارنة بين الماضي والحاضر تبرز للعربي
المسلم وجوه التماثل والاختلاف بين الأشياء؛ فما حدث بالأمس
يمكن أن يحدث اليوم على نحو آخر في مكان آخر. فإذا كانت
ذاكرته مستوعبة لنماذج بطولية قديمة، لاحتوائها على قيم إنسانية
تصلح في كل زمان ومكان، فإن عملية المقارنة تدفعه لاستدعاء هذه
النماذج، إما على سبيل التذكير، مادام ماضى الإنسان لا ينفصل
عن حاضره، أو على سبيل تأكيد قيمة من القيم الإنسانية بمعناها
الأنطولوجي، حيث أنها حدثت بالأمس ومن الممكن أن تحدث اليوم
وبعد اليوم. ولم يكن بوسع العربي أن يصعد النماذج الإسلامية
البطولية المرتبطة ببداية الإسلام أكثر مما صعدت إليه؛ هذا فضلا عن
أن قربه منها كان يجعله يستشعر جلالها، في حين كان ينتفى عنه
هذا الحرج بالنسبة للنماذج البطولية القديمة، فضلا عن أن الماضي
البعيد - لأنه ماضى وولى ولن يعود - يظل له سحره في ذاكرة
الإنسان على الدوام.

وهنا يمكننا أن نضيف عنصرا آخر توطدت به العلاقة بين العربي
المسلم ونموذجه القديم، وهو المشاركة الوجدانية الكفيلة بأن تحول
ذلك الشعاع الناتج من إدراك التماثل إلى إضاءة باهرة؛ فما فعله
البطل بالأمس يسير على طريق الحق الذى ينشده اليوم، وإذا ما شعر
بظلم أو بتهديد فى أى شكل من الأشكال، أمكن الامتداد بأفعال
البطل القديم ليحرر نفسه على الأقل من الإحساس القاتم بهذا

التهديد. وهكذا تقوى عملية المشاركة الوجدانية التي تقع بين فكر الماضي والحاضر، وتظل ممتدة إلى ما لانهاية. مادامت في كل مرة تفتح المجال لمزيد من الكشف عن وجوه التماثل والاختلاف بين القديم والجديد، ومادام البطل القديم له حضوره التام بقيمه وأفعاله.

وبهذا انتظمت سير الأبطال القدامى في مجريات الأحداث الإسلامية، سيرة وراء الأخرى، دون مراعاة لتسلسل الأزمنة التاريخية التي عاشوا فيها، فقد تستدعي الأحداث الأكثر حداثة سيرة سيف بن ذى يزن، وهو أقدم تاريخياً من عنترة. على أن سيرة عنترة، من ناحية أخرى، امتدت بها الأحداث في زمن متأخر لتغطي الحروب الصليبية، في حين توقفت سيرة الأميرة ذات الهمة بأبطالها الذين عاشوا في العصر العباسي عند حد الحروب العربية الرومية.

وأهم مظهر يلفت النظر في بطولة هؤلاء الأبطال وغيرهم هو فائض البطولة عندهم. وعلى الرغم من أن فائض البطولة خاصية مرتبطة بالبطل الشعبي بصفة عامة، فإن ما يهمننا بالنسبة للبطل العربي هو كيفية توظيف هذا الفائض في خدمة التاريخ والدين والمجتمع.

إن فائض البطولة لدى البطل العربي ملك له، وفي وسعه أن يوجهه نحو الخير أو نحو الشر؛ أى أن فائض البطولة يمكن أن يكون عامل بناء بقدر ما يكون معول هدم؛ وكل من البناء والهدم موجه نحو البطل وجماعته؛ أى أن البطل حر في توظيف بطولته نحو الخير أو نحو الشر. ولعل هذا هو السبب في إصرار بعض السير الشعبية،

مثل سيرة عنترة وسيرة ذات الهمة وغيرهما على تحرير البطل من العبودية قبل أن يقوم بأعماله البطولية للخير الجماعى على الوجه الأكمل، ذلك أن البطولة مرتبطة بالحرية. وهنا يتمثل كذلك الفرق بين بطولة عنترة وذات الهمة، على سبيل المثال لا الحصر، وبطولة أبطال السيرة الهلالية. فالبطولات الأولى كانت موجهة نحو سيادة الأمة الإسلامية. بما تتضمن هذه السيادة من نظام اجتماعى ونظام دنى؛ أما عند بنى هلال فقد وظف فائض البطولة عندهم ليكون معول هدم للطرفين المتحاربين. وبذلك كانت نهاية السيرة هو المثل الشعبى المستخلص منها:

وكانك يا بوزيد ما غزيت

على أن توظيف البطولة فى الشركان من ناحية أخرى تأكيداً لإمكانية توظيفها فى الخير. ذلك أن الشر الديوى. وفقاً للمفهوم الإسلامى، ليس مقدراً من قبل، بل إن الشر موجود لكى يكافح الإنسان ضده فى حرية مطلقة، فإما أن ينتصر على الشر أو ينتصر عليه الشر.

ولهذا فإنه ليس فى الإمكان أن نجد فى البطولات القومية العربية بطولة شبيهة ببطولة «أوديب» الذى سحق من قبل أن تولد مأساته، لأن الشر المحتم قدر له من قبل. ولهذا لم يستطيع بفائض بطولته أن يبعد الشر أو يتخلص منه أو حتى يكفر عنه. إنما كانت بطولة أوديب ومأساته فى الوقت نفسه، أنه شعر بأنه مكبل فى اللحظة التى شعر فيها بأنه حر. ولم تكن صراعاته فى سبيل فك القيد عنه سوى طريق أدى به إلى الاستسلام لقدر أقوى منه.

ولم يكن الشر في سيرة بنى هلال من قبيل هذا الشر المقدر من قبل، بل كان أبطال السيرة جميعا مسؤولين عن استفحال الشر إلى أن جعلوا منه ماردا ابتلعهم عن آخرهم. حقا أن الحرية تعد من لوازم البطولة في التراث الشعبي العربى، بل أن بعض السير بالغت فى الارتفاع المفاجئ فى درجة الحرية فى لحظة من الزمن، بحيث جعلت هذه اللحظة وكأنها إشراقة الوجود بأسره، التى انطلق منها البطل محطما كل القيود وكل نوازع الشر والإخفاق. لقد أحجم عنتره عن الإشتراك فى القتال الذى دار بين قبيلته عبس وقبيلة طى. فناداه أبوه: «كر يا عنتره! فقال قولته»: «العبد لا يعرف الكر، بل يعرف الحلاب والصر». وفى لحظة إشراقة من الزمن. رد الأب قائلا: «كر وأنت حر» وعندئذ كانت الدهشة التى تحولت إلى يقين ثم إلى بطولات فائقة. وفى لحظة من إشراقة الزمن كذلك، برئت ذات الهمة من الدنس الذى ألصق بها، إثر التشكك فى أن ابنها عبد الوهاب أسود اللون، ولد حقا من زوجها الحارث. وما أن نطق الكاهن ببراءتها حتى انتزعت ذات الهمة حريتها قسرا ممن يريد أن يستعبدها. بل إنها عدت المكان الذى اتهمت فيه بالدنس، مصدرا للدنس والإثم، فتركته إلى حيث لا يشغل الإنسان إلا بتأكيد ذاته وتأكيد وجوده.

فهل يمكننا أن نقول بمفهوم دينى آخر أن البطل. إلى جانب تأكيد مفهوم البطولة بارتباطها بقضية الحرية، كان فى الوقت نفسه يكفر ببطولته عن دنس لحق بمجتمعه؟ فما من سيرة من السير العربية التى تحكى عن بطولة بطل إلا وهى تلح على الكشف عن

مساوئ لحقت بالمجتمع، فكان على البطل أن يناضل في جبهتين في آن واحد: الجبهة الداخلية، حيث تسود بعض مظاهر الفساد؛ والجبهة الخارجية، حيث يقف عدو قديم كافر مهددا البلاد. وعندئذ يكون البطل هو المناضل الذي يعد بالعودة إلى حصن النظام الدينى والنظام الاجتماعى، وكأنه يرتبط بذلك بعقد بينه وبين الله من ناحية، وبينه وبين المجتمع من ناحية أخرى. وبذلك تكون أعماله البطولية بمثابة التكفير عن ذنوب قومه، أو بمثابة الثمن الذى ينبغى أن يدفع غالبا فى مقابل العودة إلى السلام على المستويين، الدينى والدنى.

أما عندما حاول أوديب أن يتخلص ببطولته من الإثم فإنه لم يستطع. ولم يكن أمامه سوى أن يختار أحد موقفين كلاهما صعب إما أن يصارع ببطولته طواحين الهواء. حيث لا جدوى من النضال، وإما أن يستسلم وهو يرى كيف يسقط الدينى على رأس الدنى، وكيف تنهوى الحرية أمام القيد؛ وكانت الدهشة، ثم كان الفرع، ثم كانت المأساة.

وعلى النقيض من هذا تماما كان فائض البطولة لدى البطل العربى صرخة بتفوق الإنسان وقدرته على تغيير مصيره، ومصير قومه، حيث لا شر ولا قهر.

وعندما عجز البطل العربى الممثل فى أبى زيد الهلالي أو فى الزير سالم عن التحرر من قيد نظامه القبلى القديم، أى من أسر الماضى، وحتى بعد أن نزع إلى التحضر المرموز له بخروجه من مكانه القديم،

عندئذ كان الإخفاق محققا على المستويين الفردي والجماعي، لا لأن الشر هنا مقدر من قبل، بل لأن البطل لم يستطع بإرادته الإنسانية أن يتخلص منه.

إن البطل العربي تاريخي بالمفهوم الديني الجديد. والتاريخ وفقا لهذا المفهوم بدأ مع آدم التاريخي لا مع آدم المخلوق. فأدم المخلوق يمثل عصر البراءة قبل أن يبدأ التاريخ. أما آدم التاريخي فيبدأ بهبوطه إلى الأرض وتمييزه بين الخير والشر «فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه» (سورة البقرة ٣٧). ثم كان سعيه في الأرض هو ونسله من بعده بهدف الإرتقاء بالإنسان والحياة معا. ثم يكون الجزاء في النهاية على قدر العمل.

على أن صورة البطل العربي لن تكتمل إلا من خلال تحليل نموذجة مرة أخرى في الإطاء الحضاري واللغوي.

(٤)

ثانيا: البطل العربي في الإطار الحضاري واللغوي

كان العربي بعد الإسلام يشق طريقه إلى المعرفة للوصول إلى حقائق الأشياء. كان يريد أن يسمى الأشياء بأسمائها؛ أن يتحرك من خلال اللغة إلى حيث تجتمع الأشياء والكلمات في جوهرها الطبيعي الذي يهيئ لها أن تكون حقيقة، أو بالأحرى جزءا من الحقيقة. ولكن ما إن تبرز اللغة الشيء، حتى تترك المسمى معلقا حتى لا يصبح مقيدا بمعرفة محددة لا تسمح بمزيد من المعارف. والطريقة الوحيدة التي يبقى من خلالها المسمى معلقا هي أن يرتبط

بالبلاغة، أى يرتبط بالتشبيه والتمثيل والتجسيد. فإذا كان المسمى هو البطولة، فلا بد إذن أن تجسد البطولة، وأن تشبه بالمثال وعندئذ تتعقد عملية التمثيل وتتوحد فى تشكيلات جديدة على الدوام. فالبطولة هى عنترة، على سبيل المثال. ولا بد أن يقرن عنترة بالوحدة القياسية للبطولة لا فى زمنه الجاهلى بل فى الزمن الإسلامى. وتظل اللغة تتجمع من خلال هذا المفهوم البطولى حتى يقترب المفهوم من التحديد. وعندئذ يمتص عنترة كل اللغة التى صنعتها ويلوذ الفكر العربى مرة أخرى بتشكيل جديد للبطولة ينتزع كذلك من بين حصيلته المعرفية، عندما يقفز إلى ذهنه تماثل الأشياء عبر الأزمنة والأمكنة فى مجال آخر. وهنا تتمثل أهمية اللغة بالنسبة للتراث العربى. إن اللغة القادرة على تسمية الأشياء بأسمائها هى جزء من الكون، وهى تطوى فى كليتها كلية الأشياء الممثلة لنظام الحياة، ثم إنها مهما تراكت من أجل تحديد المسميات فإنها تتركها فى النهاية معلقة بدون تحديد نهائى، تماما كما تتمثل الأشياء فى الكون بدون تحديد نهائى من خلال مدركات الإنسان.

على أن هذا النمو الإدراكى فى البحث عن حقائق الأشياء على مستوى جزئى كان يرتبط على الدوام بالموقف الدينى من الحقيقة الكلية. ومعنى هذا أن المجال المفتوح فى البحث عن الحقائق يعود فينغلق على كل وحدة تكشف عن نظامها فى حد ذاته؛ إذ أن الحقيقة الكلية لا بد أن تتكشف أولا فى إطار من الأنظمة الجزئية.

وبهذا أصبح العربى المفكر يرى النظام فى كل شئ على حدة. وقد دفعه هذا إلى أن يصنف الأشياء بحيث يكون لكل شئ خصائصه المميزة له.

ففى مجال التاريخ، على سبيل المثال، كان يرى فى كل حادثة مغزى، وهى فى حد ذاتها تجربة عاشها الإنسان، ولكن الأحداث والتجارب تعود فتمائل لتكشف عن نظام الحياة ونظام الكون.

وربما فسر لنا ذلك هذا الحشد الهائل من الأحداث الصغيرة والكبيرة التى تتضمنها كتب التراث، وهى ما اصطلح على تسميتها بالأخبار. وربما فسر لنا ذلك حرص الشعب العربى على أن يحكى أكثر من سيرة شعبية؛ فلكل سيرة بطل. ولكل بطل زمان تميز بأحداثه. ثم أن لكل بطل خصائصه وملامحه الخاصة به، بحيث أصبح من الممكن أن ترسم صورة كل بطل على حدة فى ذهن كل إنسان عربى مرتبط بترائه. ومع كل هذا فإن هؤلاء الأبطال يتحركون حركة واحدة فى اتجاه واحد، حركة تبدأ من الفوضى متجهة. أو محاولة أن تتجه، إلى النظام، ومن الجمود إلى الحركة، ومن زمن تسلط الفرد إلى عهد سيطرة الجماعة. وكما تتوحد حركة الأبطال مع تنوعها، تتوحد سيرة حياتهم. فهى تبدأ بالميلاد، ميلاد البطل فى جو يشيع فيه الظلم وتشيع فيه الفوضى والإحساس بالقلق، ثم تسرع السيرة فى أحداثها حتى تصل إلى المرحلة التى يبرز فيها البطل بين جماعته التى تنتبأ منذ بداية الأمر بأن خلاصها سيكون على يديه؛ وعندئذ تلتف من حوله، ويمثلها فى السيرة بطل آخر ذكى خفيف الحركة، كثير الحيلة. فيفسح بذلك الطريق للبطل الأول كى يقوم بأعماله البطولية الخارقة ضد كل من يقف مناوئاً للعدل والنظام ومصالح الأمة. وكثيراً ما تنتهى أحداث السيرة بميلاد البطل الجديد الذى يولد من البطل القديم لكى يستمر بأفعاله البطولية فلا تعود الحياة إلى الورا.

لقد أخضع الفكر العربى كل شئ إلى التصنيف؛ فصنفت العلوم تصنيفا دقيقا، بل صنفت أنماط الناس وكتب عن كل صنف، فظهرت الكتب فى أخبار الظرفاء والأذكىاء، وفى أخبار الماجنين والمغفلين والحمقى والطفيليين. وعلى هذا النحو ظهرت كتب تتناول الحيوان وعجائب المخلوقات، وكتب فى خصائص البلدان، إلى غير ذلك من الكتب التى تختص بظواهر الحياة كافة.

على أن توصل الفكر العربى إلى عمليات التصنيف الدقيقة لم يكن من قبيل المصادفة، بل كان نابعا من نمو إدراكى فى اكتشاف العلاقة بين الشكل الظاهرى والتكوين الخفى، ثم بين التكوين الخفى والوظائف التى يقوم بها الشئ. وقد أدى هذا الإدراك إلى التمييز بين العضوى وغير العضوى؛ فالعضوى هو الشئ المرتبط بالحياة، وهو الذى ينمو وينتج، وذلك على نقيض غير العضوى، الذى إن ترك وحده دمر وقتل. ومن خلال تشريح طبائع النفس الإنسانية اكتشف مافيه من عناصر تساعد على التدمير وأخرى تساعد على البناء.

فالأشياء إذن لاتدور فى حركة مفتوحة كلية، بل إن كل شئ له نظامه وإن التحم مع الأشياء الأخرى ليعبر عن وحدة الكون. وهكذا انشغل الفكر العربى بالشكل والجوهر، وأصبح مفهوم الإنسان الحقيقى هو كل من صنع صناعة مميزة أو قال قولا (بخاصة فى الشعر) لم يقل من قبل. وليس «الانشغال بموضوع السرقات الشعرية سوى تعبير عن اكتشاف الفردية بقدر اكتشاف الكلية. فهذا يسرق من ذلك؛ يسرق معنى أو يسرق لفظا، ولكن النظر لا يمل،

برغم ذلك، من اكتشاف الفردية في التعبير ومن اكتشاف التمايز بقدر اكتشاف التشابه. فالتعبير إذن قديم وجديد، والكلمات أقدم من أى ذاكرة. وهى تتكرر جيلا بعد جيلا لأن جذورها ممتدة فى التكوين العضوى الأصلى للغة.

هناك إذن منبع تستمد منه الأشياء، وهى فى انطلاقتها تتماثل وتختلف وتنوع، وعلى الإنسان أن يدرك التشابه والتماثل والتنوع فى إطار الوحدة.

ولكى يدرك الإنسان ذلك لابد أن يتجاوز نفسه إلى حيث تتكاثر الأشياء وتتبعثر عبر الأزمنة، لكى يجد نفسه مبتدئا من نقطة الصفر، فيبحث لنفسه، بوصفه كائنا عاملا، عن نظامه الخاص به، وعند ذاك يجد نفسه فى النهاية ملتحما مع القانون الكونى. يقول الشهرستاني فى هذا المعنى:

«وللمعنى صعود من المحسوس المسموع إلى المعقول المعلوم، صعودا من الكثرة إلى الوحدة، ونزول من المعقول المعلوم إلى المحسوس المسموع، نزولا من الوحدة إلى الكثرة. والعرفان مبتدئ من تفريق ونفض، وترك ورفض، معن فى جمع هو صفات الحق، للذات المريدة للصدق، ثم انتهاء إلى الوحدة، ثم وقوف. وهذا من حيث الصعود. والعرفان مبتدئ من توحيد وتفكير، وتمييز وتصوير، معن فى معرفة هى معرفة صفات الخلق، ثم انتهاء إلى الكثرة، ثم وقوف، وهذا من حيث النزول^(١).

(١) أبو محمد على بن أحمد بن حزم الأندلسى: الفصل فى الملل والأهواء والنحل، الرياض، دار عكاظ للنشر والتوزيع ١٩٨٢، ص ١٣١.

هذا الاتجاه فى الإدراك والفكر الذى أخذ يتسرب فى الحياة العربية الإسلامية منذ زمن مبكر، ثم تأكد فيما بعد بوصفه أسلوباً فى تناول الأمور، كان يحكم الحياة العربية لدى الخاصة والعامة، مع الفارق فى التركيز على معطيات هذا الإدراك، وطريقة توجيهها. ولا غرابة فى ذلك، فقد كانت الثقافة تسير فى حركة دائرية صاعدة هابطة على الدوام.

(٥)

ولدينا نص مهم للجاحظ أورده فى كتابه الحيوان عند حديثه عن عفوية الذبوع والشهرة لشخص ما دون آخر، أو ذبوع شعر دون شعر، أو مثل دون مثل، يقول الجاحظ: «وكذلك حظوظ الفرسان. وقد عرفت شهرة عنتره عند العامة ونباهة عمرو بن معد يكرب. وضرب الناس المثل بعبيد الله بن الحر وهم لا يعرفون، بل لم يسمعو قط بقتيبة بن الحارث بن شهاب، ولا ببسطام بن قيس، وكان عامر بن الطفيل أذكر منهما نسباً»^(٢).

ثم يستمر الجاحظ فى كلامه عن هذه الظاهرة محاولاً أن يجد لها علة فيقول: «والعامة لم يصل ذكر هؤلاء إليهم إلا من قبل الخاصة، والخاصة لم تذكر هؤلاء دون أولئك، فتركت تحصيل الأمور والموازنة بين الرجال، وحكمت بالسابق إلى القلب على قدر طباع القلب وهيبته، ثم استوت علل العامة فى ذلك وتشابهت».

(٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان، ح ٢، ١٩٦٥، القاهرة عيسى الحلبى، ص ١٠٣، ١٠٤.

إن نص الجاحظ مهم من حيث إبرازه للنقاط الآتية:

أولاً: على الرغم من تقسيم الجاحظ الناس من حيث مستوياتهم الثقافية. بطبيعة الحال، إلى خاصة وعامة، فإن قنوات التوصيل بين الخاصة والعامة كانت مفتوحة.

ثانياً: على الرغم من اتفاق العامة مع الخاصة في الحكم على الأمور والموازنة بين الرجال وفقاً لميولهم وأهوائهم، فإن الخاصة تختلف في كثير أو قليل في آرائهم، في حين أن العامة تستوى في عللها وتشابه.

ثالثاً: أن السبب وراء الشهرة، سواء عند العامة أو الخاصة. يرجع، من وجهة نظره، إلى علل خفية وإلى الجذود والحظوظ.

على أن الجاحظ يمتد بهذه الظاهرة، ظاهرة تعلق الخاصة والعامة ببعض النماذج من الشخصيات دون البعض الآخر، فيعزوها مرة أخرى إلى كلف الناس بمآثر العرب في الجاهلية أكثر من مآثر العرب في الإسلام. ثم يعلق على ذلك بقوله: «وهذا أيضاً ينبثق أن الأمور في هذا على خلاف تقدير الرأي، وإنما تجرى في الباطن على نسق قائم وعلى نظر صحيح، وعلى تقدير محكم .. وإلا فما بال أيام الإسلام ورجالها لم تكن أكبر في النفوس وأجل في الصدور من رجال الجاهلية، مع قرب العهد وعظم خطر ما ملكوا، وكثرة ما جاءت به أنفسهم، ومع الإسلام الذي شملهم، وجعله الله تعالى أولى بهم من أرحامهم.

ولو أن جميع مآثر الجاهلية وزنت به، وبما كان فى الجماعات
اليسيرة من رجالات قريش فى الإسلام، لأريت هذه عليها أو لكانت
مثلها^(١).

وهنا نرى أن الجاحظ يسجل الظاهرة من زاويتين: الأولى اشتراك
الخاصة والعامة فى تأكيد القيم من خلال نماذج إنسانية تثبت فى
النهاية بوصفها علامات على هذه القيم. والفرق بين العامة
والخاصة، أن العامة تثبت بعض النماذج دون غيرها، كما أنها تتفق
فى تقييمها لهذه النماذج. وسواء كان النموذج قد هبط إلى العامة
من الخاصة، أم كان نابعا من أنفسهم، فالعملية تنتهى إلى ميل
العامة لنموذج بعينه، واتفاقهم على رأى موحد فيه.

أما الزاوية الثانية، وهى الأغرب، فهى أن يكون الاحتفاء بمآثر
الجاهلية أكبر من الاحتفاء بنماذج الإسلام. ولا يسع الجاحظ
عندئذ إلا أن يسلم بأنه لابد أن يكون وراء ذلك عله تقوم على نسق
قائم، وعلى نظر صحيح، وعلى تقدير محكم.

على أننا نرجع كلتا الظاهرتين، ظاهرة تأكيد العامة لنموذج من
الماضى البعيد وليس من الماضى القريب، إلى حركة الحضارة الخفية
التي تقوم على التواصل من الماضى الذى ترك نصوصا احتفظت بها
الذاكرة إلى الحاضر.

وقد كانت النصوص التي وصلت إلى الإنسان العربى المسلم عن
العصر الجاهلى كثيرة. وقد ظلت هذه النصوص تروى إلى أن دونتها

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

الخاصة، كما ظلت العامة تحتفظ بها فى ذاكرتها عن طريق الرواية. وعندما تتأكد عملية التواصل، يستمد الإنسان من ذاكرته ما لا يتعارض مع فكرة وسلوكه الجديدين، بل مايجده مؤكدا لدينه الجديد. وكل النماذج العربية الجاهلية التى احتفت بها العامة والخاصة كانت تمثل قيما قديمة عند العربى؛ وهى القيم التى نماها الإسلام فيما بعد، وهى الفروسية والشجاعة والشهامة، والإيثار والكرم، وإغاثة الملهوف، وحماية المرأة؛ وهى القيم التى انضمت فيما بعد تحت مفهوم الفتوة. وقد كان هذا تبريرا كافيا لرحضة النماذج الممثلة لهذه القيم عبر الذاكرة، من الجاهلية إلى الإسلام.

وقد كان كل هذا يتم من خلال اللغة؛ فالحضارة فى النهاية تترجم إلى مجموعة من النصوص التى تكون المخزون الثقافى للإنسان، والتى يستعين بها فى عملية التذكر. وحيث أن هذه النصوص تمثل فى النهاية تجارب جماعية، فإن ما يثبت منها لابد أن يسبقه اعتراف جماعى بقيمته، بوصفه تجارب صالحة للحاضر كما كانت صالحة للماضى؛ أى أن ما يثبت من رصيد النصوص لابد أن يكون له كيان فى لغة الجماعة؛ ولهذا فإنه سرعان مايحال إلى ميكانيزم التذكر، وعندئذ يمكن أن يقال إن الحادثة أو الشخصية قد سجلت فى ضمير الجماعة، أى أنها أصبحت مكونا من مكونات الحضارة.

على أنه مازال هناك مشكلة بالنسبة لهذه النصوص يثيرها المفهوم الحضارى بوصفه بناء آليا يحكم جمع المعلومات فى ضمير الجماعة

وينظمها ويحفظها. وهذه المشكلة ترتبط بقدرته هذه النصوص على الدوام. فما الذى يبقى من هذه النصوص وكيف يبقى؟ وما الذى ينسى ولماذا ينسى؟ أما ما يبقى من النصوص ويكون قابلا للدوام، فهو النص المتحكم فى بناء المجتمع لاحتوائه على قيم متحركة فيه. ولكن هذا النص نفسه لابد أن يكون من المرونة بحيث يقبل التغيير فى الوقت الذى يحتفظ فيه بأصالة بوصفه نصا قديما. وأما ما ينسى فهو ما يحتوى على شفرة فقدت مغزاها أو قيمتها فى نظام الجماعة.

وإذا كان الجاحظ قد أورد ذكر عنتره ضمن الأسماء التى حظيت بنصيب من الشهرة، فإن اسم عنتره هو الذى يستوقفنا، لأن شعبية عنتره فى زمن الجاحظ على الأقل تعنى أن النصوص حول عنتره أخذت تتراكم من الجاهلية حتى عصر الجاحظ. وهذا يعنى كذلك أن هذه النصوص وغيرها هى التى امتدت بسيرة عنتره حتى تجمعت فيما بعد فى السيرة التى عرفت باسمه. وليست هذه النصوص نصا واحدا ظل يروى بحذافيره دون تغيير على نحو ما وصلنا شعر عنتره، ولكنها نصوص مختلفة، وظفت فيها اللغة فى الجمع والربط وتحريك المعنى فى الاتجاه المناسب للعصر، حتى أصبحت بطولة عنتره أشبه بالظاهرة الكونية التى تجمع بين نظام العالم الكبير وهواجس العالم الصغير، عالم الإنسان.

ولم تفعل اللغة هذا الفعل إلا بعد أن تخطت حاجز الخبر القصير الذى تقرأه فى كتب التراث التى كتبت عن عنتره، إلى الروايات

المسهبية المتنوعة، حيث أدت اللغة وظائفها الثلاث: المواضعة والاطراد والدلالة.

فهناك تواضع على شخصية عنترة ومقوماته بين جميع النصوص كما أن هذه الشخصية تتأكد على الدوام مع اطراد الأخبار عنها.

ولكن عندما تتولد من الأخبار حكايات تقبل الإضافة والتحوير في العصور المختلفة، عندئذ تكشف اللغة عن دلالات جديدة. على أن هذه الدلالات الجديدة مهما كثر توليدها تظل في علاقة تقاربية مع الدلالات الأولى للنصوص الإخبارية الأولى. ومع ذلك تظل الفروق بين النصوص الإخبارية والحكايات المتأخرة واضحة. وأول هذه الفروق أن الحكاية المروية تحتفظ بمرونة ذاتية تجعلها قابلة لأن تحكى من جديد في كل مرة، الأمر الذى يكسبها طاقة توليدية على مر الزمن، ويجعلها متجددة على الدوام، أى يكون لها وجود متجدد في الأبعاد الزمانية والمكانية. وثانى هذه الفروق أن الخبر إما أنه يحكى الكلام الذى سمع من قبل، أو يحول الأفعال الماثورة إلى كلام. وهو في كلتا الحالتين لا يغرب عن الأصل كثيرا. أما الحكاية، فهي تستدعى الغائب أولا، ثم إن راويها يعد - من خلال الأداء - منجزا للحدث الكلامي، وليس مجرد ناقل له. ومن هنا يأتي تأثير الحكاية وقابليتها لأن تروى على الدوام. وثالث هذه الفروق يتمثل في أن الخبر يقوم على إلغاء الحقيقي واستحضار الغائب، في حين أن الحكاية تتحدث عن الغائب الحاضر معا.

ومهما يكن من أمر، فإن النصوص المرتبطة ببطولة عنترة تواصلت على النحو الآتي:

أولاً: مرحلة الحضور الكامل لعنترة متمثلاً في شعره. ولم يكن عنترة شاعراً فحلاً ذا بعد واحد؛ فهو لم يكن صوت قبيلته، شأنه شأن غيره من شعراء القبائل الفحول، كما أنه لم يكن من الشعراء الصعاليك الذين عبروا عن تفردهم بعيداً عن قبائلهم، بل كان منتصياً لقبيلته وغير منتصم في الوقت نفسه؛ كان منتصياً بروحه لقبيلته، ولكن قبيلته كانت تأبى عليه أن يكون منتصياً لها انتصاء كلياً، بل فرضت عليه أن يكون عبداً خادماً للأسياد ومن بينهم أبوه. فمشكلته إذن لم تكن مشكلة اجتماعية على المستوى المحلي فحسب، بل كانت مشكلة إنسانية على المستوى الإنساني الكلي. ولم يكن حبه لابنة عمه عبلة ورفض عمه للزواج بها سوى جزء من هذه القضية الكلية.

ولهذا فقد وظف هذا الحب في خدمة قضيته، وكان - من ثم - عاملاً من عوامل شهرته.

وفي إطار هذه المشكلة المعقدة كان عنترة حاضراً حضوراً كلياً في شعره، في حين كان شعره معبراً عن غياب قبيلته، القضية إذن تتمثل على النحو الآتي:

الفرد في مواجهة الجماعة

الجماعة	الفرد
غياب	حضور

والدلالة هنا مباشرة، تكشف عن أن الجماعة تدير ظهرها للمطالب الفرد الممثل لأقلية لها المطالب نفسها. وهذه المطالب حق عادل، بدليل ذبوع شعر عنترة، بل انتحال الشعر عليه فيما بعد، الذي يبالغ

فى فروسيته وقوته التى قد تصل إلى حد قوة الوحوش الكاسرة
وشراستها.

ثانيا: المرحلة التى يحكى فيها عن عنترة فى التراث العربى فى
شكل إخبارى؛ وهى مرحلة غياب لكل من الفرد صاحب المطلب،
والجماعة التى تتنكر لمطلبه.

ومع ذلك فإن عنترة حاضر من خلال الرواية ومن خلال شعره
الذى يستشهد به. فهذه المرحلة تتمثل كذلك على النحو الآتى:

الفرد فى مواجهة الجماعة

حضور وغياب غير جدلى، حيث أن صوت الراوى خافت من
ناحية، كما أنه يتوارى وراء الرواية من ناحية أخرى. وتظل الدلالة
مباشرة، حيث أن الخبر يحكى بأسلوب مباشر قصة عنترة.

المرحلة الثالثة: وإذا سلمنا مع الجاحظ بأن أخبار عنترة
وصلت إلى العامة عن طريق الخاصة على حد تعبيره، فإن المرحلة
الثالثة تتمثل إذن فى تلك الروايات التى كانت تتناقل شفاهاً حول
عنترة، مؤكدة انشغال الناس بقضيته من ناحية، وبطولته فى حل
مشكلته من ناحية أخرى.

على أن الروايات التى كانت تحكى عن عنترة أو غيره، كانت
ترتبط بصناعة القص بصفة عامة لدى الشعب العربى؛ إذ كانت
الرغبة فى الاستماع تجرى وراء قول الشاعر:

فاتنى أن أرى الديار بطرفى .. فلعلى أعى الديار بسمعى

بقدر ما كانت الرغبة فى التأمل جريا وراء الحكمة القائلة: لأطيب من النظر فى عقول الرجال. لقد كان من الممكن أن يكون وراء كل موقف حكاية، وكانت كل حكاية تحمل من الرموز الإشارية ما يمكن أن يستوعب حركة الفرد والمجتمع، أو لنقل حركة الفرد فى إطار الحركة الدينامية للمجتمع. فضلا عن هذا، فإنه فى إطار المفهوم الدينى والحضارى السابق، كان القص يقف بالإنسان العربى على عتبة بين الطبيعى وما فوق الطبيعى، أو هذا العالم والعالم الآخر، أو المحدود والمطلق. وحيث أنه يرفض أساسا أن يلغى إحساسه بالعالم الآخر مهما يكن انتماءه للواقع، إذ كان يرى وراء كل ظاهرة مرئية ظاهرة أخرى خفية، فقد كان القص يقدم إليه ذلك المعيار الآخر القريب الذى يربطه بواقعه. وقد كان رصيده من التذكر من الوفرة بحيث كان يسعفه فى أن يجد فى ركامه الهائل مادة تضع له المجهول إلى جانب المعلوم.

وعندما تكون الوسيلة فى نقل هذه المادة وغيرها هى الرواية، فإنها سرعان ما تنتشر وتفعل فعل السحر فى لم شمل الجماعة فى بنية ثقافية واحدة، وفى رؤية كونية موحدة. ويمكننا أن نقول أنه من خلال الدائرة الثقافية الواسعة التى كان القص والروايات الشفاهية بعامة يمثلان أهم معلم من معالمها، تتحدد نمطان من المعرفة: المعرفة الدلالية للأشياء؛ والمعرفة الموسوعية. وتتحدد الأولى بتعريف الشئ مع إبراز علاقته بغيره، كما تتحدد الثانية بهذا الرصيد الهائل من المعرفة المسبقة، التى كان الإنسان يخترنها من الماضى وينقلها إلى الحاضر. وفى إطار هذه المعرفة الموسوعية تتحدد مجموعة من الرموز التى تعد

علامات لمعارف ضمنية، تربط الجماعة بعضها ببعض من ناحية،
فى حركة فكرية وثقافية واحدة، كما أنها توجه النصوص المتناقلة
من الحسى إلى المعنوى، ومن الخاص إلى العام، ومن الجزئى إلى
الكلى، من ناحية أخرى.

لم تكن العامة أو المجتمع الشعبى، كما نسميه اليوم، مجرد
مستقبل، كما يرى الجاحظ، بل كان مستقبلا ومرسلا معا؛ إذ لم
يكن الكثير من المادة المعرفية الهائلة التى ظلت تدون فى كتب
التراث العربى حتى عصور متأخرة، لم تكن فى أصلها سوى مادة
ثقافية هى ملك للخاصة والعامة؛ فقد تنتقل من الخاصة إلى العامة،
أو من العامة إلى الخاصة. فالعملية دائرية، والكل متفتح لاستقبال
المعرفة.

ونعود إلى الروايات التى كانت العامة تتناقلها عن عنتره، لنجدها
تتراكم فى النهاية، مكونة شكلا قصصيا متكاملا، هو ماسمى
اصطلاحا بالسيرة؛ إذ أصبحت السيرة نمطا بعينه من القص له
خصائصه المحددة. أما الروايات الشفاهية السابقة على السيرة، فليس
من السهل الاهتمام إليها، اللهم إلا إذا نظرنا إلى الأخبار المدونة
بوصفها مرحلة نهائيا لروايات شعبية متناثرة.

على أن العامة ظلت تحتفظ برواياتها الشفاهية حتى تجمعت فى
السيرة كما قلنا.

فإذا حاولنا أن نمثد بفكرة غياب البطل وحضوره فى الروايات
المتابعة على مر العصور، فإننا نجد أن السيرة تمثل جدلية الغياب
والحضور فى أقوى مظاهرها.

فالسيرة لم توجد بدون راو يرويها، والراوى لا يكون له وجود بدون جماعة تلتف من حوله لتستمع إلى روايته. وهنا نجد أن حضور البطل التاريخى مع جماعته فى الماضى، يستبدل به حضور الراوى مع جماعته فى الحاضر.

ولكن الراوى، فى الوقت نفسه، ليس هو البطل، بل هو شاهد عليه وعلى عصره؛ وهى يشهد على ذلك أمام جمهور المستمعين إليه. ودلالة هذه العملية الأدائية أن هناك عصرا متأخرا يشهد على عصر متقدم. وهذا العصر المتأخر يعانى من المشكلات ما يتطلب استدعاء ما يماثل مشكلاته. بل يتطلب بطلا لحلها شيئا يبطل الماضى.

أما من حيث اللغة التى تؤدى بها الرواية، فلا تقوم كلية على أساس استخدام ضمير الغائب، بل يقف ضمير المتكلم مع ضمير الغائب على قدم المساواة. والمتكلم هو البطل مع جماعته. ومعنى هذا أن البطل حاضر مع جماعته فى المشاهد الأساسية.

وهنا تتمثل جدلية الحضور والغياب فى قمتها على النحو الآتى:

* عصر تاريخى حاضر يشهد على عصر تاريخى غائب.

* عصر تاريخى غائب وحاضر معا.

* البطل وجماعته غائبان وحاضران.

* النص حاضر بين الراوى والمتلقى.

النتيجة :

- ١ - تفاعل تام بين الماضى والحاضر، فى الوقت الذى يقدم فيه الماضى دفعة للحاضر والمستقبل .
- ٢ - المتلقى مستقبل ومرسل معاً؛ إذ هو شريك فعال فى عملية الأداء .

(٦)

وإذا كنا قد ركزنا الكلام حول السيرة عنترة، فذلك لوضوح امتدادات رواياتها من الجاهلية حتى العصر الحاضر، كما سنرى فيما بعد .

ولكن سيرة عنترة التى دونت بعد أن اكتملت، لم تكن السيرة الوحيدة التى نشطت روايتها فى عصر ازدهار رواية السير الشعبية، وهو العصر المملوكى وما بعده، بل شاركتها فى ذلك سير أخرى نسجت على منوالها . وربما تكاملت السير جميعاً على منوال واحد فى وقت واحد .

لقد كان عصر المماليك عصر امتداد لظاهرة الفتوة، بل تأكيد لها، وذلك لدورها فى الإنتصار على الصليبيين الذين اشتد ساعدهم وتناولهم على البلاد العربية بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي . فلما استطاع الظاهر بيبرس أن يهزمهم هزيمة منكرة فى موقعة المنصورة الشهيرة فى عام ٦٤٧ هـ، وأن يقضى بذلك على تواجدهم قضاء كلياً، كان هذا يعنى أن الشعب العربى وجد البطل الحى الذى يعد

فى بطولته وفعاله القومية امتدادا للبطولة القديمة الممثلة فى عنتره. وعندما تتم عملية إدراك التماثل بين البطليين، وعندما ينزع الإدراك الجمعى الواعى لأن يحكى عن بطولة الظاهر بيبرس، فإن سيرة الظاهر بيبرس سرعان ما تكتمل من خلال احتذاءها للنموذج الروائى المعد من قبل، الممثل فى سيرة عنتره، وفى سيرة الأميرة ذات الهمه، التى اتخذت من المعارك العربية البيزنطية مهادا لها.

إن كل سيرة من هذه السير تحكى عن نموذج بطولى يسعى فى بداية الأمر إلى تحرير ذاته من القيود التى تعوق حركة بطولته على المستوى القومى.

فإذا تم له ذلك سعى إلى تحرير الشعب من كل مايكيل مسيرته الحضارية، سواء كان ذلك فى الداخل أو فى الخارج.

وأهم ما يلفت النظر فى هذه السير الثلاث، أن كل سيرة، على الرغم من تجاوزها الزمان والمكان اللذين عاش فيهما البطل، تظل تحتفظ للبطل بدوره فى إطار حقبة تاريخية محددة، فتفسح بذلك المجال لنماذج بطولية أخرى تمتد بعملها إلى حقبة تاريخية تالية. فإذا كانت سيرة عنتره قد امتدت ببطولته حتى وصلت بها إلى أسبانيا وشمال أفريقية، على نحو يشير إلى الإضافات التى دخلت على السيرة فى عصور متأخرة، يظل دور عنتره مختصا بحقبة ما قبل ظهور الإسلام.

ثم تأتى سيرة الأميرة ذات الهمه لتغطى حقبة تاريخية حاسمة أخرى، هى حقبة صراع العرب مع البيزنطيين، من أواخر العصر

الأموى حتى عصر الواثق بالله، موظفة نموذجين آخرين هما عبد الوهاب والسيد البطال. وعلى الرغم من أن أفعال هذين البطلين قد امتدت كذلك إلى أسبانيا وشمال أفريقية، فإن دورهما التاريخي في السيرة لا يتعدى صراع العرب والبيزنطيين.

ثم تتواصل الأدوار البطولية بعد ذلك فتلتحم ببطولة الظاهر بيبرس بطل الحروب الصليبية. وكأن الحس الجمعي العربي أراد أن يؤكد بذلك أن البطولات العربية الإسلامية ليست مقصورة على عصر دون عصر، بل هي تبرز في كل عصر، وهي متواصلة تواصل التاريخ.

على أن هناك سيرتين أخريين كان لهما من الذبوع والانتشار مثلما كان للسير الأخرى، ونعني بذلك سيرة الزير سالم وسيرة الهلالية. ولا بد لنا من وقفة عند هاتين السيرتين، لنميز دور الأبطال فيهما عن دور الأبطال السابق ذكرهم.

فمن المعروف تاريخياً أن قبيلة بنى هلال بدأت في النزوح من نجد في القرن الخامس الهجرى إثر حادث الجفاف والقحط الشديدين اللذين أضررت بهما البلاد. وكان من الطبيعي أن تنزح القبيلة إلى حيث يوجد المرعى أو ما يحفظ لها بقاءها. وكانت كلما انتقلت القبيلة إلى مكان به مرعى فى قلب الجزيرة العربية، حوربت بوصفها قبيلة غازية مهددة لأصحاب الأرض الأصليين. وفى النهاية قررت القبيلة أن تنزح برمتها إلى تونس الخضراء. حيث يسكن الزناتية الذين يرجعون فى أصلهم إلى قبيلة حمير. وكانوا قد استقروا فى تونس الخضراء منذ زمن ودانت لهم البلاد، وعلى الرغم

من صلة القربى بين الهلالية والزناتية، فإن الأمر لا يخرج عن أن هناك قبيلة متبدية تغزو أخرى مستقرة متحضرة؛ وإذا كان من حق الجماعة المغزوة أن تدافع عن نفسها، فإن من حق القبيلة الغازية أن تدافع عن بقائها. ومن هنا كان الصراع الذى ولدت منه السيرة الهلالية.

هذه الحقائق تاريخية، وقد سجلها ابن خلدون فى مقدمته^(١) وأكدها المؤرخون والأدباء فيما بعد.

على أن هناك حقائق تاريخية أخرى حدثت فى الجزيرة العربية قبل الإسلام وترتبط بالصراع الذى دام أربعين عاما بين قبليتى بكر وتغلب فيما عرف بحرب البسوس. وقد خلقت هذه الأحداث أثرها فى سيرة الزير سالم، التى تمتعت بالانتشار على نحو ما تمتعت به سيرة الهلالية. ولما كانت الأحداث فى سيرة الزير سالم تشبه فى بنيتها أحداث السيرة الهلالية، ومن حيث أن الصراع فى كلتا السيرتين دار بين أبناء الأرومة الواحدة، ومن ثم لم يسفر إلا عن تدمير الفرد والجماعة معا، فإن هناك من الباحثين من يرى أن سيرة الزير سالم تعد جزءا ممهداً للسيرة الهلالية، أو هى على الأقل مرهضة بأحداثها.

وهنا تختلف صورة البطل فى هاتين السيرتين عن صورته فى سيرة عنترة والظاهر بيبرس والأميرة ذات الهممة. فالبطل فى السير الأخيرة هو البطل الأوحده، وهو الزعيم الذى ينجح فى لم شمل

(١) ابن خلدون - المقدمة ص ١٥٠.

الجماعة، وهو الفارس المستوعب لمشكلات الجماعة، الذى يحس بما يتهددها على المستوى القريب والبعيد، والداخل والخارج. وهو البطل ذو المقدرة البطولية الخارقة، التى تضمن الانتصار له ولقومه فى النهاية. وأخيرا هو البطل المحتضن للقيم الدينية، والساعى إلى تحقيق قيم حضارية جديدة تحل محل القيم القديمة. أما أبو زيد والوزير سالم، فهما يقفان محاصرين بمعوقات جماعية تحول كلية دون توجيه البطولة الوجهة الصحيحة.

إن البطل الأول بطل حر، فى حين أن البطل الثانى بطل مقيد؛ ولا بد أن يعيش البطلان معا فى ضمير الجماعة من أجل صحتها. فإذا كان البطل الحر يوقظ فى الجماعة الإحساس بمسؤوليتها لمواجهة الحاضر من أجل المستقبل، ومن ثم فإنه لا بد أن يكون ممتصا لقيم الجماعة وطموحاتها بقدر ما يكون حرا ومثاليا فى أفعاله البطولية، فإن البطل الثانى لا يستطيع أن يحقق ذلك، لأن الجماعة تستوقفه بين الحين والآخر، وتجره إلى متاهات انقساماتها وتستثير فيه حمية الأخذ بالتأثر. ولا يفيق الفرد والجماعة إلا بعد أن يكون كل شئ قد دمر حتى النهاية. وهذا البطل، شأنه شأن البطل الأول، يقبع فى الماضى، ولكنه سرعان ما يثير إدراك التماثل بين الماضى والحاضر، ومن ثم فهو يثير الخوف والقلق من أن يحدث فى الحاضر ما حدث فى الماضى.

حقا إن هاتين السيرتين تفيضان فى شرح الأسباب التى حدثت بالأبطال إلى الانقسام على أنفسهم، وإلى ترك بذرة الشر فيهم تنمو إلى أن أصبحت شيطان ماردا، يعبث بدون حدود. ولكن السيرتين،

فى تصويرهما الطبيعى للأحداث ودقائق الحياة وتفصيلها، وفى تفجيرها للنزعات الإنسانية المدمرة، تصلان بالقارئ أو المستمع فى النهاية إلى الإحساس المرير بتفاهة الأسباب التى لا تتناسب مع النتيجة المؤسفة بأى حال من الأحوال.

فى قصة الزير سالم كان الصراع بين القيسية واليمينة. واستطاع الملك التبع اليمانى أن يفرض نفوذه على القيسية ويقتل زعيمها ربيعة التغلبى.

ونحركات القيسية للأخذ بثأر زعيمها فقتل كليب التبع اليمانى. واستطاع من بعد ذلك أن يجمع شمل قومه وأن يحكمهم حكما مستبدا. وولى هذا قصة الغدر المعروفة التى قامت بها أخت الملك تبع، والتى تسمى فى السيرة البسوس أو الدسوس، فاستطاعت أن توفق الأحقاد النائمة بين أبناء العمومة من بكر وتغلب، فكان أن قتل جساس كليبا زوج أخته الجليلة. وعندئذ انطلق مارد الحقد من قمقمه ليثير الرعب ويعمل القتل بين الطرفين، إلى أن تمكن الزير سالم بعد أحداث مثيرة من أن يقتل جساسا بمساعدة الجرو ابن أخيه كليب من الجليلة. ثم انفرط عقد الجماعة فيما بعد وتشتتوا فى بقاع مختلفة.

إن الخطر الخارجى مائل فى هذه السيرة، كما هو مائل فى سيرة عنتره وسيرة الأميرة ذات الهمه وسيرة الظاهر بيبرس. ولكن الأبطال فى هذه السيرة لم يدركوا بعد هذا الخطر وأثره فى حاضرهم ومستقبلهم؛ ولهذا فإن الجماعة لم تجتمع قط تحت لواء بطل تنصره

فينتصر لها ويخلصها من هذا التهديد الخارجى، ويدفع الحياة بعد ذلك إلى الأمام، بل إنها على التقيض أثارت فيه روح الكراهية والبغضاء إزاء أبناء جلدته، فالتجهمت بطولته وجهة خاطئة نحو الداخل، بدلا من أن توجه نحو الخارج.

ومن ناحية أخرى، فإن البطل لم يستطع أن يتحرر قط من نزعاته الشخصية كما هو الحال مع كليب، كما لم يستطع أن يتحرر من قيد الماضى البغض، وهو الأخذ بالثأر، كما هو الحال مع الزير سالم، ووسط هذه التناقضات على المستوى الفردى والجماعى، تفسخت قيم البطولة، وضاع الحاضر والمستقبل.

وتعود هذه الأحداث فتتكرر فى شكل آخر فى السيرة الهلالية. لقد كان الدافع إلى هجرة بنى هلال ملحا، بل إن الهجرة كانت إجراء مشروعا، إذ كان التهديد من الطبيعة، وليس بسبب قوة بشرية، ومن هنا كان الإجماع على الهجرة. وكانت لدى بنى هلال طاقات هائلة من البطولات التى يمكن أن تحمى أبناء القبيلة فى أثناء رحلتهم الطويلة الشاقة. وفضلا عن هذا فإن الجماعة ارتضت التنظيم الجماعى غير المستبد، الذى رسمه رؤساء القبيلة عندما وزعت مناصب القيادة قبل أن تبدأ الهجرة، بين قاض يحكم بالعدل، وهو القاضى بدير، ورئيس عرف باعتداله وهو السلطان حسن، وبطل محارب متوازن هو أبو زيد. ويتم هذا التشكيل القيادى بإشراك عنصر النسائى عرف بمشورته اللماحة ساعة الملمات، كما عرف بقدرته على إثارة النخوة بين القوم. وتمثل فى الجازية، التى خصص لها ثلث المشورة.

وبهذا التشكيل الجماعى المنظم بدأت رحلة بنى هلال. وكانت القيادة قد تركت حماية مؤخرة الجماعة وما تحمله معها من بقايا متاع وحاشية لبطل استبعد عمدا عن التشكيل الأساسى للقيادة لخطورته، وذلك هو دياب بن غانم. وأسرّها دياب للقوم، فكان القوة المدمرة للجماعة فيما بعد. وهنا تبدو البطولة الإيجابية ناقصة؛ إذ أنها عجزت عن إخماد الشر أو محاصرته على الأقل بل أنها أفسحت المجال لدياب لكى ينشر شره فى كل مكان. وتشير السيرة إلى هذا النقص برمز له دلالاته القوية، وهو أن أبطال بنى هلال رضخوا للنبوءة التى قالت إن ديابا وحده هو الذى سيقضى على الزناتى خليفة حاكم تونس. وليس هناك أبلغ من هذا فى الإشارة إلى أن الأبطال أبطالوا عمل عقولهم ومداركهم عندما ارتضوا حكم النبوءة. وكان معنى الاستسلام للنبوءة، الاستسلام بطبيعة الحال للقوة الشيطانية المدمرة.

فلما نجح دياب فى القضاء على الزناتى خليفة، أشهر سيفه فى وجه قبيلته، ولم يتركها إلا بعد أن دمرها عن آخرها، ثم دمر نفسه فى النهاية، إذ سقط الجميع قتلى واحدا تلو الآخر.

وهنا يبرز معنى البطولى الناقصة؛ إنها البطولة المقيدة بقيد لا تستطيع الفكاك منه؛ فقد يكون القيد من داخل البطل، كما هو الحال فى كليب، وقد يكون تعلقا بقيم قديمة بالية، كما هو الحال فى الزير سالم، وقد يكون عجزا من البطل فى الاعتماد على نفسه، وعجزا منه فى إعمال فكره فيما هو أبعد من قدمه، كما هو الحال فى أبى زيد وأقرانه.

ومعنى هذا أن التكوين الجماعى للهلالين كان ينقصه البطل النموذجى المحطم لكل القيود، مثل عنترة أو الأميرة ذات الهمة.

هذا من ناحية الهلالية. أما من ناحية الزناتية حكام تونس، فهم الذين وقع عليهم الغزو، وكان هذا مبررا كافيا لقيامهم بالدفاع عن أنفسهم وعن أرضهم، بخاصة بعد أن أدركوا أن القبيلة الغازية كانت تتطلع، بعد أن اشتد ساعد دياب بن غانم، إلى أن تمسك بمقاليد الأمور فى تونس بعد أن تطيح بحكم الزناتى خليفة. ومع أن الزناتية كانوا يعيشون حياة الاستقرار والتحضر التى تؤهلهم لطرد الغزاة، أو على الأقل لإخضاعهم للسلطة الحاكمة، فقد أخفق الزناتى خليفة كلية فى تحقيق أى من الهدفين. ولا يرجع السبب فى هذا إلى غياب البطل الفرد، فقد دوخ الزناتى خليفة نفسه بأبطال بنى هلال، ولكن السبب يرجع إلى نمط الحكم فى تونس؛ إذا كان الحكم يقوم على أساس حكم الفرد وغياب الشعب. وهذا ما تصوره السيرة بدقة عندما جعلت الزناتى خليفة يعيش متحصنا فى قلعته، وليس هناك من صوت يبادل له رأى سوى رأى وزيره العلام. وعندما يعجز الزناتى عن التماس المشورة يلوذ بالنبوة كذلك، ويصدقها، كما حدث مع بنى هلال، وتكون النتيجة أن يقتل الزناتى خليفة بيد الشر الممثل فى دياب.

وتنتهى السيرة بأن تقول كلمتها، بأنه لابقاء الشعب بدون قيادة قوية رشيدة. ولا بقاء لشعب غائب من حكم فرد متسلط.

ولعل هذا يفسر لنا بقاء هاتين السيرتين، سيرة الزير سالم، وسيرة الهلالية، جنباً إلى جنب مع السير الأخرى. فإذا كانت السير الأولى

تقدم المثال، فإن الثانية تمثل الواقع. وإذا كان الواقع. يستدعى المثال، فإن المثال لا يلغى الواقع. وقد يغلب المثال الواقع في الذاكرة الشعبية عندما تستدعى الأحداث هذا المثال، كما كان الحال في زمن الحماسة الشعبية العربية إبان الحروب الصليبية.

ولكن عندما تصبح القضية الملحة قضية الدعوة إلى لمّ شمل الجماعة المتفرقة، ونبد الانقسامات والخلافات التي لا تؤدي إلا إلى تدمير الفرد والجماعة، تماما كما دمرت الهلالية والزناتية، وكما دمرت أسرة الزير سالم من قبل، عندئذ تستدعى النماذج المدمرة والمدمرة من الأبطال، لا بقصد التأييد، بل بقصد الإفاقة.

(٧)

وقد راودت بعض ذوى الحس الجمعى، فى أثناء استمرار رواية السير الشعبية وبعد أن تضخمت رواياتها كما وكيفاء، لا فى نطاق السيرة الواحدة فحسب، بل فى نطاق السير المختلفة - راودتهم فكرة تدوين السير. وتعد هذه العملية بحق عبقرية من عبقریات الحس الجمعى؛ إذ تعجز التساؤلات الآتية عن أن تجد الإجابة الحاسمة عنها. فإذا كان الأداء الشفاهى هو الوسيلة الأولى فى نقل هذا التراث من خلال الراوى، فما الذى دعا إلى تدوينها؟ ثم من الذى أجهد نفسه هذا الجهد لكى يملأ هذا المجلدات الضخمة؟ وكيف تسنى لهذا المدون أو هؤلاء المدونين أن يدونوا السير جميعا وفقا لطريقة روايتها، بحيث أصبح التدوين استمرارا للأداء الشفاهى؟

وليس فى وسعنا أن نجيب عن هذه التساؤلات إلا من خلال مجموعة من الفروض التى نستقيها من طبيعة النص نفسه.

فالنص المدون يستحضر الراوى على الدوام؛ فما من صفحة واحدة فى السير تخلو من عبارة «قال الراوى». وفى بعض الأحيان يستحضر الجمهور عندما يضيف عبارة «ياسادة ياكرام» إلى عبارة «قال الراوى». ومعنى هذا أن مدون السيرة يجتهد فى أن يبعد عن ذهن القارئ أنه يقرأ نصا، بل يسمع نصا مكتوبا إن صحت هذه المفارقة، أى أنه يتعمد ألا يعطل تماما حاسة السمع التى تعد الحاسة الأولى الأساسية فى عملية استقبال التراث الشفاهى.

وعندما ألزم مدون السيرة نفسه بتقديم السيرة على هذا النحو، ألزم نفسه إلزاما كاملا بعملية الأداء الشفاهى. ويتركز الأداء الشفاهى على استحضار الجو الكامل لحياة البطل اليومية مع جماعته. ومن ثم فهو يركز على الحوار المتصاعد على الدوام بينه وبين أفراد جماعته، أو بين أفراد الجماعة بعضهم وبعض، فى كل ما يخص العمل البطولى للبطل. وكل هذا الحضور المكثف لا يتم إلا من خلال حضور اللغة. وإذا كان كل شكل من أشكال الحضور يختلف فى درجة إيقاعه فى نفس المستمع الذى يفترض حضوره على الدوام، من خلال تكرار عبارة «قال الراوى ياسادة ياكرام»، فإن اللغة تختلف فى درجة إيقاعها من حضور إلى آخر.

فإيقاع اللغة يهدأ مع الحكى؛ لأن المتحدث صوت واحد؛ صوت أنا القاص الذى يندمج مع صوت الراوى. وفضلا عن هذا فإن الراوى

بحكى ما مضى، وما مضى غائب يستحضر فى هدوء .. فإذا
جسدت المشاهد وواجهت الشخوص بعضها بعضاً، تحولت لغة
الغياب إلى لغة الحضور الحى، الناقل لنبض الحياة اليومية. حتى إذا
تهياً الجو للمعركة، تصاعد إيقاع اللغة حتى يصل إلى قمة الإيقاع
فى الشعر، وعندئذ تخاط اللغة، أى لغة الشعر، بهالة من القدسية
عندما يبدأها الراوى بالصلاة على النبى؛ إذ ليس بعد الشعر تصعيد
آخر للغة. وتمثل هذه الهالة المقدسة فى شعر السيرة الهلالية المدونة
بصفة خاصة عندما تخاط المقطوعة الشعرية بتلك الهالة، فيبتدأ بها
ويختتم بها. ولا بد أن يؤكد الراوى وجوده فى هذه المناسبة فيقول:

أنا أول مبتدى أمّـدح محمد

رسول الله للأمة حبيبى

أو يقول:

أنا أول ما نبدى نصلى على النبى

نبى عربى للمؤمنين شفيـع

ثم يقول فى النهاية:

وأفضل ما قلنا نصلى على النبى

نبى الهدى صاحب مقام رفيع

ثم يشرع الراوى بعد ذلك فى تقديم الشخصية فيقول على

سبيل المثال:

يقول أبو سعدة الزناتى خليفة .. أرى البر خالى أوحشتنا أو انسه .
أو يقول :

يقول أبو زيد الهلالي سلامة .. فى علم ربي حارت الأفهام .
وبهذا تكون اللغة قد أدت دورها فى عملية التواصل التراثى ؛ فالنص
المكتوب جعل للروايات السابقة عليه تحقفا فعليا . وليست الروايات
المدونة هى أول الروايات التى تحكى عن البطل ، ولكنها الروايات
التي اكتملت فى زمن التدوين ، وهى الروايات التى تداخلت فيها
النصوص المروية والمكتوبة السابقة عليها .

فالنص المدون هو الشكل اللغوى لشيء آخر سابق عليه ، وهو
النص الذى يحقق عملية التناص ، أى تداخل النصوص بمعنى أنه
نص فوق النص . وترجع أهمية النص المدون فى هذه الحالة فى أنه
يفسح المجال للمقارنة بينه وبين النصوص المدونة الأخرى للسير
المختلفة ، لإبراز الثابت والمتغير فيها ، كما أنه يفسح المجال للمقارنة
بينه وبين النصوص السابقة عليه فى إطار السيرة الواحدة إن وجدت .

وربما كان أهم من ذلك أن هذا النص المدون يفسح المجال لتناص
آخر لاحق عليه . فالنص يُقرأ فى أكثر من مستوى ثقافى ، وعندئذ
تكون الإفادة منه فى أكثر من شكل ، فقد يروى مرة أخرى عندما
يتكامل مجتمع القص بين راو وجمهور من المستمعين ، أى بين
مرسل لرسالة ذات شفرات محددة ، ومستقبل لهذه الرسالة و مترجم
لشفراتها وفقا للظروف الفكرية والسياسية والاجتماعية التى يعيشها .
وعندئذ تكون مسؤولية اللغة كبيرة ؛ إذ يعتمد عليها مدى نجاح

عملية التواصل للنص التراثى . وفى هذه الحالة لابد أن يحدث تغيير فى اللغة، لا على مستوى المضمون، إذ يظل كل بطل محتفظاً بهويته، كما تظل أفعال كل بطل دليلاً على هذه الهوية، بل على مستوى الشكل والإيقاع والدلالة؛ أى أن اللغة تعود فتغير من المعايير الجمالية للنص المدون، حتى تؤدي دوراً ناجحاً فى الظروف الجديدة لرواية النص .

وقد وضع عبد الرحمن الأنودى يده بحق على عبقرية اللغة، أو بالأحرى عبقرية الراوى اللغوية فى إنجاح عملية تواصل الرواية فى السيرة الهلالية كما تتم اليوم . فإلى جانب الراوى الذى يضع نصب عينيه النص المكتوب، هناك الشاعر المبدع الذى ينجح فى عملية التناص على نحو مبتكر، بحيث يستطيع أن يشد إليه جمهوره عندما يجعله يحس أنه إزاء خلق جديد للسيرة .

يقول :

«المربع شكل فنى سائر فى الصعيد، (أى صعيد مصر)، ويستعمل خارج الهلالية كنوع خاص من أشكال الفن يطلق عليه اسم المربع أو الواو . وهو يركز على لعبة ارتطام القوافى ليتولد المعنى وتبرز الحكمة .. ومنذ وقت مبكر اكتشف الفلاح المصرى هذا القالب للتعبير من مأساته وعجبه من فعل الأيام وظروف الزمان . وهو لم يشابه فى إبداعه بين القوافى، بل وحّد قافية الشطر الأول والثالث فى كلمة تحمل معنيين، وكذلك فعل بالشطر الثانى والرابع . كأن يقول :

طبيب الجراح قوم الحق
وهات لى الدوا اللى يوافق
فيه ناس كثير بتعرف الحق
ولاجل الضرورة توافق
ويستمر الأبندى فى إبراز أهمية المربع فى عملية الارتجال فيقول
إنه (أى المربع) قصير لا يحتل زمنا ينسبك موقعك من الرواية،
وصالح لحمل معلومة كاملة مفيدة بين شطراته الأربع:

جض الزناتى وقال أخ
ياتونس تعبتى معايا
وما لقيت لى خل ولا أخ
فى الحرب يسند معايا

أو يقول:

زعل الزناتى زمق قال
قال فىا جروح عبت وشاخت
وان كان على قول العلام
تونس بلاشك راحت^(١)

فالشاعر هنا لم يتدع شكلا جديدا، بل استعده من مخزونه
المعرفى. ولم يفعل الراوى هذا إلا بناء على إدراكه أن عملية أسر
الجمهور اليوم ليست هينة، وأنه لابد من الاهتمام إلى الوسيلة الفعالة
(١) بحث ألقاه عبد الرحمن الأبندى فى مؤتمر التراث الشعبى، قطر ١٩٨٤.

التي تجعل المستمع أسير لفته: إذ أن المستمع غالبا مايكون عارفا من قبل بقصة البطل، وربما كان يعرفها بكل تفصيلاتها. وعندئذ تكون اللغة الجديدة الناقلة للقصة القديمة هي الهدف في حد ذاتها.

والمربع هنا أشبه بالمثل الشعبي ذى الشكل القصير المحكم والمغلق. ولكن المثل الشعبي شكل لغوي أحكم إغلاقه من قبل؛ أما المربع فهو مفتوح لتجربة الراوى اللغوية. على الرغم من ضيق حيزه وصرامة نظامه.

وهنا نجد أن المستمع يبدأ فى متابعة الراوى منذ بدايته، التى تسمى اصطلاحا عند الرواة بالعتب، ثم يلاحقه فى الجزء الثانى المسمى بالطرح، وتستمر معه فى الجزء الثالث المسمى بالشد، ثم يستعد معه لإحكام إغلاق المربع فى جزئه الأخير المسمى بالصيد. وبهذا تسير مصطلحات المربع المستمدة من عملية الصيد الطبيعية، خطوة خطوة مع عملة الاتصال بين الراوى وجمهور المستمعين وبهذا يكون الراوى قد حقق عملية التناص فى أكثر من زاوية.

فهو يحتفظ بالبداية الدينية المقدسة بالصلاة على النبى، وينتهى بها؛ وهو التقليد الذى حفظته السيرة المدونة. ثم إن ذاكرته أسعفته بالشكل الشعرى المناسب تماما لرواية السيرة اليوم، الذى يتيح له فى الوقت نفسه تأكيد قدرته الإبداعية من خلال الاختيار المناسب لمفردات اللغة من بين حصيلة لغة الحياة اليومية.

وبهذا نستطيع أن نقول إن تدوين النص لم يكن معوقا لنمو النص بقدر ما كان رقبيا على النص الموروث؛ فقد حال بينه وبين الضياع،

وهو الأمر الذى أدركه مدونو السير الشعبية فى زمن مبكر، ربما قبل أن تحول المتغيرات الاجتماعية دون رواية النص رواية كاملة. وهم بعملهم هذا قاموا بما نقوم به نحن الآن من تسجيل لمواد التراث خوفاً عليها من الضياع. وإذا كان التسجيل اليوم يحتفظ بالكلمة المسموعة فإن المدون اجتهد فى توصيل الصوت ضمناً من خلال الكلمة المقروءة.

(أ)

وتستمر الذات العربية مختزنة لنماذج البطولة العربية القديمة. وعندما بدأت رواية السير الشعبية على النحو التقليدى (راو وجمهور) تنقلص نتيجة لتغير ظروف الحياة وتطورها، اتخذت مسارين آخرين فى الاستمرار فى استحضار النماذج البطولية: المسار الأول هو الذى ظلت فيه الرواية مستمرة من خلال قصص يقطع من السير، يهدف الراوى من خلاله إلى توصيل قيم بعينها إلى جمهوره المحلى. والمسار الثانى هو الذى ظلت فيه هذه النماذج حاضرة فى أذهان الكتاب، فلم يكفوا فى أعمالهم القصصية أو المسرحية عن ربط الماضى بالحاضر من خلالها. وكم من أعمال أدبية ألقت حول هذه النماذج البطولية العربية فى العصر الحديث، وربما كانت هذه الأعمال من الكثرة، على مستوى العالم العربى، بحيث ينبغى استقصاؤها وحصرها. ومعنى هذا أن الوعى المستمر بالنماذج البطولية يتم على مستويين ثقافيين، مستوى الثقافة الشعبية، ومستوى ثقافة الخاصة.

ونود الآن أن نشير إلى بعض الأعمال الفردية. لا بهدف نقدها وتقييمها، فهذا له مجال آخر، بل على سبيل الكشف عن استمرار الوعي بنماذج البطولات العربية. وإذا كان لكل عصر انشغالاته وهمومه، كما أن لكل عصر معايير الفنية والجمالية، فإن كل عمل أدبي لابد أن يكون - فى كثير أو قليل - منبثقا من الانشغالات والهموم من ناحية، ومن المعايير الفنية السائدة فى حينه من ناحية أخرى. على أنه بقدر انغماس الكاتب فى هموم عصره، وبقدر إتقانه لصناعة الإبداع وجبته، بحيث يطفى التلميح على التصريح، وتكون وحدة العمل مستقطبة للأحداث واللغة، تكون قيمة العمل.

ومن الملاحظ أن كل الأعمال التى كتبت حول عنتره، على سبيل المثال، تهتمها شخصية عنتره فى المقام الأول، ولكنها تختلف من عمل إلى آخر فى طريقة توجيه الشخصية، كما تختلف فى الهدف الذى توجه له الشخصية.

فالشاعر أحمد شوقى يفتت أحداث سيرة عنتره التاريخية، وينتقى من هذا التفنيت ما يساعده على إبراز قضيتين قد يبدو أن إحداهما منفصلة عن الأخرى، ولكنهما - وراء السطح - مرتبطتان كل الارتباط. وكلتا القضيتين مستمدة من قيم البطولة النموذجية المتمثلة فى عنتره.

أما القضية الأولى فهى قضية الشباب الذى يسعى لأن يعيش حياة ناعمة مرفهة، بعيدا عن التحلى بقيم الرجولة وخلق الرجال. وقد

استغل الشاعر فى ذلك نماذج الشباب الذين تنافسوا على خطبة
عبلة، فعقد مقارنة بينهم وبين عنتره البطل الذى أحبته عبلة، على
الرغم من سواد لونه وقبحه، فضلا عن وضاعة قدره فى مجتمعه.
وقد عقد شوقى المقارنة بين هذين النمطين من الشباب تارة من
خلال حوار عبلة مع أبيها مالك، وتارة أخرى من خلال حوار عنتره
مع عبلة.

مالك:

عبل أصغى، فى أرض نجد شباب
أطلعوا فى سمائها أقمارا

عبلة:

قد عرفت الغلام ذاك الفتى النضـ
ر الذى لا يطيق يقتل فارا
كل يوم مع العذارى كثير العجب
مستحيا كإحدى العذارى
أترى يا أبى وأنت أخى يا
عمرو كيف انتفتما الأصهارا؟

وهذه المشكلة بعينها هى التى كانت تؤرق عنتره، إذ ساوره الشك
فيما إذا كانت عبلة تحبه لشخصه أم لبطولته ولحبه لها الذى طبق
ذكره الآفاق.

عنتره:

لو لم تهيمى عبلتى
بحملاتى المنكرة
وليس بى أنا ولا
بسحتى المحقرة
لقلت إذ دعوتنى
ياقمرى يا سكرة

أما القضية الثانية المرتبطة بالقضية الأولى، وهى القضية التى كانت شاغل العصر وشاغل الشاعر الأول، فهى قضية الوحدة القومية من أجل طرد المستعمر، وهى قضية مرتبطة بالقضية الأولى بالضرورة، حيث أنها لا تتحقق إلا إذا توفر عليها رجال أشداء وأبطال من أمثال عنتره. وهنا يضم الشاعر بطولة عبلة إلى بطولة عنتره. ذلك أن عبلة التى تعشق عنتره حقاً لرجولته وبطولته، تعشقه فوق ذلك لقيمة أخرى هى غيرته على المصلحة القومية، وتجنيدته بطولته لخدمتها. ولهذا فهو يتعقب كل ذليل يلوذ بالدولة الغاصبة، دولة كسرى الفرس أو قيصر الروم. فعندما أمسك بقافلة عربية كانت فى طريقها إلى كسرى وأذلها، دار الحوار بين عجوز فى هذه القافلة وعبلة على النحو التالى:

العجوز: وكنا نيمم أرض العراق لنجتازها

هم الأمراء وقد يرتدون

بياب الأعاجم ذل النذل^(١)

وهكذا تجاور الماضي والحاضر بعد أن برز التماثل بينهما، وإن تمايزا فى الوقت نفسه. ولا يتم هذا الإدراك الواعى إلا من خلال النموذج الذى يحدث هذا التجاور وهذا الربط بين الأحداث المتماثلة. وعندئذ يصبح عنترة، شأنه شأن هذه الأحداث، شبيها بعنترة القديم، ومتميزا عنه كل التميز فى الوقت نفسه.

وعلى مستوى آخر يقرن محمد فريد أبو حديد فى قصته «أبو الفوارس عنترة» بين عنترة وشيبوب أخيه الذى يعانى مشكلته نفسها ولكنه كان يجد الحل لها على نحو آخر. لقد كان يرى الحل فى نسيان المشكلة بدلا من أن يستغرق فيها. وسبيله إلى ذلك اللهو والعبث من ناحية، وتهديد قومه على نحو ما تتهدد اللصوص الأغنياء من ناحية أخرى. وكان كلما رأى عنترة سادرا فى أحلامه تارة، ومكلفا نفسه مشقة المصادمات مع قومه دون جدوى تارة أخرى، ازداد يقينا بأنه لاسبيل لمعالجة قضيته إلا على نحو مايفعل. قال له عنترة:

«لقد كدت أحسدك على ما أنت فيه يا شيبوب، فإنى مازلت حيث كنت بعيدا عن سعادتى. كنت من قبل ألحها أُمَامى وهى لاتزال كأنها تهرب منى كما يهرب الجبان الذى يركب مهرا سريعا.

(١) أحمد شوقى - مسرحية عنترة، ص ٤٥ - ٥٥.

لم يكن الرق هو الذى يحول بينى وبين سعادتى .. ليس الرق هو الذى يشقنى بل هو الوهم الذى يرضى به الضعفاء أنفسهم ويسترون به ضعفهم^(١) .

إن كلا النمطين، عنتره وشيبوب هارب من الواقع، وكلاهما كان على وعى بذلك؛ ولهذا فقد كان كل منهما يحاول أن يجر الآخر نحو الحقيقة واليقين حتى لا يتوه فى الوهم والشك. وإذا كان عنتره أقرب إلى الحقيقة من شيبوب، وإذا كان تحرير الجماعة لا يتم إلا على يد البطل الذى يكابد ويعانى، لا ذلك الذى يعث ويلهو، فإن عنتره يستمر فى مكابדתه ومعاناته، تارة مع نفسه، وتارة أخرى مع قومه، حتى ينتصر فى النهاية.

وفى قصة عنتره بن شداد لأحمد عباس صالح يستوقف الكاتب عنتره لكى ينتزع منه الحقيقة فيما إذا كان يدافع عن حريته هو أم حرية الجميع. وهنا يدور الحوار بينه وبين شيبوب مرة أخرى. يقول له شيبوب: ولكننى لا أرى الحرية التى تريد أن تصنعها لنفسك إلا جزءاً من كل، والحرية لا تتجزأ. فما الذى يجدى الحرية إذا أصبح عنتره حراً؟ سيكون نصف العالم عبيداً أيضاً.

على أن عنتره يستمر فى كفاحه حتى يحصل على حريته ويتزوج بعبلة، وهو على يقين بأنه لن يستطيع أن يحقق الحرية

(١) محمد فريد أبو حديد: أبو الفوارس عنتره - القاهرة، دار المعارف ١٩٦٩، ص

للجماعة إلا إذا حرر نفسه أولاً. ولهذا فهو يقول لشيوب فى ختام القصة: «لم ينته كفاحى ياشيوب، فلم أزل عنصرة بن زببة. ولن ينتهى لى كفاح حتى لايعير رجل على الأرض بما أعير به»^(١).

والى هذا الحد نجد أن عنصرة المثل مازال حاضرا فى أزمنة متفاوتة فى العصر الحديث والمعاصر. وحتى عندما يستدعى عنصرة ليستجوب عما إذا كان هدفه جماعيا وليس فرديا، وعما إذا كان واعيا كل الوعي بالوسائل التى يحقق بها هذا الهدف، فإن هذا الاستجواب لا يصل إلى حد المحاكمة، إذ لا يزال عنصرة هو النموذج البطولى القادر على تحرير الجماعة.

ولكن يسرى الجندى يستحضر عنصرة فى مسرحيته «ياعنتر» التى نشرت فى عام ١٩٧٧ ليسأله على نحو آخر. وتبدأ المسألة منذ بداية المسرحية عندما يستدعى على الزبيق المصرى عنصرة ليعينه على الحاضر. فالحاضر مثقل بالهموم، وقد سلم على الزبيق بأن حيله وألأعيه لم تعد قادرة على حل مشكلات العصر، ومن ثم فهو يستدعى عنصرة الفارس المغوار لعله يستطيع أن يدلى بدلوه فى حل هذه المشكلات.

ويأتى عنصرة من قلب الماضى مثقلا بـهموم الإنسان الذى يصارع من أجل الإنسانية. وصراعه هذا يصدر عنه كلمات مدوية تنزق أحشاء الكون الصامت:

(١) أحمد عباس صالح: عنصرة بن شداد، كتاب الجمهورية - القاهرة ١٩٧٢ ص ٧٦.

حلُمى أن يصعد فرسى كى تَطأُ حوافره كل نجوم الليل هناك.

تبعثرها شذرا

أخرج أحشاء

وأبعثرها فى وجه الليل الساخر منى

فى وجه قبيلة عبس، فى وجه العالم.

وهو كما يصرخ فى وجه الكون، يصرخ فى وجه شيبوب القانع
بما هو كائن ..

أو تعرف معنى الكلمة، «عبد».

معناها أنك شئ.

كتلك الصخرة يركلها من شاء، يول عليها.

لكن الصخرة أفضل حالا منك، إذ لا يعنيه ذلك، لانهتم كهذا
الجيل اللا مهتم كتلك النجمة.

كل الأشياء تحرق فيك ولا تهتم

لكنك شئ يتعذب

لا شئ يالى بعذابك، فى هذا الكون اللا مهتم^(١).

(١) يسرى الجندى: عترة (القاهرة، جمعية رواد قصور وبيوت الثقافة ١٩٧٧) ص ٢٦.

وإذا كان الإنسان قد قدر له أن يتعذب دون أن تحرك عذاباته
أحداً، فالحل إذن أن يقتنع بالممكن كما ينصحه شيبوب:

شيبوب: والممكن ليس قليلاً يا عنترة أمامك، إذ هم يحتاجون
إليك.

عنترة: وكما يحتاج الراعى إلى الكلب.

شيبوب: بل بالقدر الكافى كى تخيا أفضل.

عنترة: يخفقنى هذا الممكن. يمرضنى هذا الممكن.

هو عارى أرفضه حتى الموت.

ولم تستطع كلمات عنترة الملتهبة أن تسكت شيبوباً، لأن شيبوباً
يظل يرى عنترة عبداً ممبزا بين العبيد. ويكفى هذا لأن يحس بأنه
يسود العبيد إن لم يسطع أن يكون سيداً بين الأسياد.

شيبوب: بل أنت تعيش به بالفعل.

فمقابل أنك تحمل سيفاً وتحارب من أجل بنى عبس

فلست تعيش ككل عبيد بنى عبس

تمشى كالطاووس بسيفك، تستلقى فى الظل المنعش

وتقول الشعر^(١).

(١) المصدر نفسه، ص ٣٩.

وعندئذ تصبح مشكلة عنصرة جدلية، وهى مشكلة قديمة وحديثة معا. فإذا كان عنصرة يريد أن يتحرر من قيد قبيلته ومن عبودية الأسياد، فلماذا يصارع من أجلهم، ولماذا يعشق الفتاة المنتمية بسيادتها إليهم؟ وإذا كان لا مفر له من أن يصارع أسياد القبيلة حتى ينتصر عليهم، فلماذا يسعد بانتمائه إليهم بعد أن ينتصر عليهم؟

ولكن ما الحل إذن؟ والحل يقترحه عليه شيبوب بأن يخلع عنه قيد عبلة، ذلك القيد الذى يجعله أسير السيادة حتى بعد أن يصبح حرا. وما أن يسمع عنصرة هذا رأى من شيبوب حتى يصرخ فى وجهه متعللا بأن عبلة ليست هى قيده الوحيد..

نفسى قيد فى عنقى

قلبى قيد فى عنقى

شعرى قيد فى عنقى

لونى قيد فى عنقى

اسمى قيد فى عنقى، قلبى، لونى، اسمى، نفسى

أغلال أغلال أغلال

ما أفدح هذه الأغلال^(١).

ويظل عنصرة محاصرا بأصوات متعددة، أصوات تنذره بأنه لم يعد من العبيد، ولكنه لن يكون سيدا من أسياد بنى عبس. فالحرية

(١) المصدر نفسه، ص ٤١.

مطلب صعب، وهى إما أن تكون للجميع أو لا تكون. والبطل الذى يحقق لنفسه فحسب مطلباً باسم الحرية، لا يمكن أن يكون حراً. ولهذا تنطلق أصوات العبيد قائلة إثر اعتراف قبيلة عنتره بإنتمائهم إليها وموافقة العم على زواجه من ابنته عبلة:

جال وصال المغوار

غير مجرى الأقدار

أنقذ عبسا من ذل العار المر

ثم اندفع وأنقذ عبلة من ذل الأسر

لكن، هل حقاً قد غير مجرى الأقدار

فالسادة ها هم قد عادوا، علموا بمآثره، المنقذ، وأقاموا حفلاً للمنقذ عنتره العيسى الحر .. هذا ما أعلنه فيهم شداد أبوه، أما نحن ففى صمت نشهد... لا شأن لنا .. لا شأن^(١).

ويرحل عنتره ليأتى بالنوق العصافير مهراً لعبلة من عند الملك المنذر حليف الفرس.

ويأسر المنذر عنتره، ولكنه يعود فيطلق سراحه ويمنحه النوق العصافير مهراً لعبلة، فى مقابل أن يكون حليفاً له، يطلبه وقتما يشاء ولم يملك عنتره إلا أن يوافق على هذا الشرط، فى مقابل أن يحصل على المهر المطلوب لعبلة. وهكذا يتزوج عنتره من عبلة.

(١) المصدر نفسه، ص ٦٥.

وبعدئذ يحدث التحول فى المسرحية. الذى يقابله تحول فى وعى
عنتره. يقول المؤلف:

من تسعده القصة إلى هذا الحد فليمض بسلام

من مازال بقلب غض فهنا تكفيه القصة

لسنا أشراراً لنعكر صفوه

أما من يلمح فى أحشاء القصة شيئا آخر، فليتمهل

وكل عبید بنى عبس يسأل

هل حقا غيرَ عالمه حقا. أو هل يمكن؟

ذاك سؤال يتململ فى أحشاء القصة نفس القصة، كالبركان.

. وبعد أن تزوج عنتره إذا هو يفيق على أنه اختار أن يكون حليفا
للعنذر ولكسرى؛ فكيف يمكن أن يعد نفسه حرا؟ أما أسياذ بنى
عبس، فلم يكونوا فى قرارة أنفسهم راضين عن انتمائه إليهم، بل
ازدادوا تشاؤما منه. وأصبح عنتره أمام خيارين أحلاهما مر: إما أن
يرحل من أرض بنى عبس؛ أو أن يبقى معلقا، فلا هو بين السادة،
ولا هو بين العبيد.

وعندئذ تهكم به العبيد قائلين:

العبید: أو ما أصبحت طليقا حرا؟

عنتره: مازلت العبد.

العبيد: أو ما أحضرت الإبل وصارت عبلة لك ؟

عنتره: كى يتأكد أنى مازلت العبد، كى يتأكد أيضا أن الحب
سراب فى كون هرم مختل تحكمه الأوهام.

العبيد: العلة فى الكون إذن، أم فيك ؟

عنتره: العلة فيه، العلة تسبقنى، تسبق سيفى .

ويحاول عنتره أن يهرب، ولكنه يحاصر مرة أخرى لكى يقر بأن
العلة فيه، وليست فى الكون.

العبيد: ما الحل إذن إن كانت فيه العلة ؟

عنتره: أنا لا أعرف

العبيد: بل تعرف يا عنتره تماماً، أن العلة فيك.

عنتره: العلة فى !

العبيد: سل شيطان الحبشى يجبك.

وكان الحبشى قد كلفه عمارة ند عنتره بقتله، وأبى، فقتل
عمارة الحبشى.

شيطان الحبشى: العلة أنك تهرب منذ بدأت.

عنتره: أهرب .. أهرب من ماذا يا حبشى ؟

الحبشى: تهرب من وهج الحرية.

عنتره: أنا منها أهرب؟ منها؟

الحبشى: تهرب منها حين تكبل نفسك، حين تولى وجهك نحو الأوغاد لتصبح وغدا، لتحقيق عيشا سهلا وسط عفن^(١).

وبهذا تتبلور القضية؛ قضية الإنسان الذى يتوهم أنه يناضل من أجل الحرية فإذا به يرى نفسه فى النهاية يدور فى فلك القلة المتسلطة ليشتهر من خلالها ويذوق نعيم العيش عن طريقها. وحينذاك يتميع مفهوم الحرية ثم يتلاشى.

وقد حاول الكتاب من قبل يسرى الجندى أن يفجروا تلك القضية ولكنهم لم يمسوا إلا حواشيها؛ ذلك أن عنتره البطل من وجهة نظرهم لابد أن تتوج بطولته بالزواج بعبلة^(٢).

على أنه تجدر الإشارة إلى أن الحس الشعبى فى تعبيره الجمعى رفض أن تكون هذه النهاية الرومانسية هى نهاية كفاح عنتره، بل جعله يتحرك حركة تحرير شاملة من أجل الجماعة، ثم جعله فى النهاية يموت بعد أن ولد منه من يكمل كفاحه.

على أن السؤال مازال واردا بالنسبة لمسرحية يسرى الجندى. فماذا كان يمكن لعنتره أن يفعل خلاف ما فعله. والجواب على ألسنة العبيد:

(١) المصدر نفسه، ص ٩٣.

(٢) ألفريد فرج: الزير سالم (القاهرة - دار الكاتب العربى ١٩٦٧) ص ٧٨.

يكفى أن تمضى ساعتها وتموت

والعالم ساعتها يحمل معناه بموت

أقدمت تدافع عن شيء. وسوى ذلك فتموت ككلب.

ورضى عنتره بالموت، ولكنه كان قد خلف وراءه ابنا لم يولد له من عبلة بل ولد له من امرأة عادية مثله ليحمل من بعده رسالته للبشرية جمعاء، ويمتد بها، إذا كان هو قد وقف برسالته فى منتصف الطريق.

لم يعد الجيل الحديث من الكتاب المعاصرين راضين عن أبطال التراث رضاء كتاب الأجيال السابقة عليهم. فمشاكل الإنسان اليوم أكبر من أن يحملها بطل تشتم من أفعاله البطولية دوافع فردية تهدف إلى تحقيق مطعم شخصى، وإن بدا هذا المطعم الشخصى طريقا لتحقيق مطعم جماعى.

إنما البطل الحق من يبدأ من قلب مشاغل الجماعة وينتهى إليها. وهو الفدائى الذى يكفر عن ذنوبها بتقديم نفسه ضحية لها.

ومن الطبيعى أن تفجر الصراعات فى سيرتى الزير سالم والهلالية قضايا معاصرة على نحو ما فجرت سيرة عنتره. وإذا كان عنتره البطل الذى ناضل من أجل قضية إنسانية، مهما يكن دافعها الشخصى، لم يعد نموذجا بطوليا كافيا لتحقيق مطالب يعز الحصول عليها اليوم،

فما بال الزير سالم وأبى زيد الهلالي اللذين أخفقا حتى على مستوى السيرة فى تحقيق أى شكل من أشكال الوحدة الجمعية؟.

هنا نجد الكاتب المعاصر يتخذ أحد سبيلين: إما أن يكتشف من وراء الفرقة وحدة تتم فى إطار مفهوم العدل. كما فعل ألفريد فرج فى مسرحية «الزير سالم»، أو أنه يقف من الأبطال موقف المدين لهم على ما أحدثوه للجماعة من فرقة، بل من تمزيق وتدمير، وهو ما فعله يسرى الجندى مرة أخرى فى مسرحية «سيرة بنى هلال».

وفى هذه المسرحية الأخيرة تلخص الأقنعة الثلاثة التى يستخدمها المؤلف كتكنيك مسرحى للتعليق على خيبة الأبطال - تلخص منذ البداية النوازع الإنسانية الرخيصة التى أدت إلى إخفاقهم. إنها الآمال الفارغة، القتل المتبادل، الحب المستحيل والمجهض أبداً، الكراهية المتبادلة دون توقف، الاستشهاد المجانى، الجبن فى قلب البطولة.

ولا يخرج المؤلف عن أحداث السيرة الرئيسية، كما أنه يلتزم بتتابعها الزمنى من البداية حتى النهاية، منذ أن شرع بعض أفراد بنى هلال فى رحلة الريادة حتى انتهى دياب بقتل الزناتى خليفة حاكم تونس، وما تلا ذلك من أعمال القتل بين الأبطال جميعاً حتى فنوا عن آخرهم، فلا غالب ولا مغلوب.

ويحاول الكاتب أن يبحث عن السبب الخفى وراء هذه المأساة فيجده ماثلاً فى بنى هلال ونظام الحكم فى تونس معاً. فعلى الرغم من أن بنى هلال نظموا أنفسهم فى البداية، إلا أنهم سرعان ما

تشتت أهواؤهم؛ إذ لم يكن قائدهم الحربى أبو زيد الهلالي من القوة بحيث يستطيع أن يكبح جماحهم من ناحية، كما لم يستطع أن يستغنى عن دياب الهلالي، رأس الشر، كلية. وبهذا كانت قبيلة بنى هلال بمثابة شعب بدون قيادة.

أما حكم الزناتى خليفة فى تونس، فكان حكما متسلطا فرديا ويصوره الكاتب، كما تصوره السيرة من قبل، وهو محصن فى قلعته، لا يشغله إلا سلطانه، فلا يحس بالشعب ولا يحس به الشعب. وبهذا كان الوجه المقابل لقبيلة بنى هلال: حاكما بدون شعب.

وكان من الطبيعى، عندما يصطدم النظامان أحدهما بالآخر، ألا يغلب أحدهما الآخر؛ لأن كلا منهما يمثل نظاما خاويا سرعان ما يتقوض عندما تفرض عليه الظروف أن يتعرى من مظهره السطحى.

وعلى الرغم من أن سيرة الزير سالم، شأنها شأن السيرة الهلالية، تقوم على أساس القتل المتبادل بين قبيلتى بكر وتغلب، فإن القتل فيها أكثر تنظيما، أو لنقل أنه كان محدد الهدف. وهذا الهدف حددته الزير سالم منذ البداية عندما رفض أن يأخذ دية لأخيه المقتول كليب، وأصر على مطلبه وهو أن يعود إليه كليب حيا. ولكن كيف يمكن أن يعود أخوه المقتول حيا؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تمثل جوهر مسرحية ألفريد فرج «الزير سالم»؛ فلم يكن الزير سالم يهذى عندما أصر على مطلبه هذا، بل كان يعنى بحق أن يعود كليب حيا فى شخص ابنه الهجرس، الذى كانت أمه

الجليلة زوجة كليب قد أخفته منذ صغره حق لا تشب معه روح الانتقام.

لقد كان كل أمل الزير سالم «أن يترد الواقع لحظة ليبطل جريمة وينقذ مجنيا عليه»^(١).

والجنى عليه هو كليب، والجاني هو جساس أخو الجليلة. وعندما يقتص الابن من قتلة أبيه، تستمر عندئذ البطولة، وتؤدى وظيفتها على أساس العدل لا على أساس الظلم.

وبعد؛ فهل قال الكتاب بعد كل هذا كلمتهم الأخيرة؟ وهل يمكن أن يقال الكلمة الأخيرة في الإبداع الفنى أيا كان مصدره وأيا كان شكله؟ إنما الإبداع الفنى رؤية ووجهة نظر، ولا قيمة لرؤية المبدع ووجهة نظره، ما لم تكن منبثقة من مزيج متناسق من الماضى والحاضر، وما لم تكن منبثقة من رصيد معرفى يعد التراث الشعبى جزءاً أصيلاً وأساسياً فيه.

فقد تكون البطولة فى التراث الشعبى وهمية عندما تحاك حول شخصية وهمية مثل شخصية الشاطر حسن. وعلى الرغم من أن الشاطر حسن غير مرتبط بزمان أو بمكان، يظل ممثلاً لقيمة «الشطارة» القادرة على التغلب على كل العقبات، وإن كانت هذه العقبات فى عالم الجن. إنه البطل الجميل المغامر الذى لا ييأس قط، ولا يفزع قط مهما تكن الأهوال، بل يسير مندفعاً كالسهم.

(١) الفريد فرج: الزير سالم (القاهرة: دار الكتاب العربى ١٩٦٧) ص ٧٨.

حتى يحصل من العالم الغريب على الدواء الشافى لمرضى عالمه، أو هو يحصل على الشيء السحري الذى يحيل الفوضى فى عالمه إلى نظام، والكتابة إلى سعادة. وأخيرا هو البطل الذى يلوذ به الإنسان عندما يشعر بقوة القاهرة تشل حركته وتدفعه إلى اليأس.

هذا هو الشاطر حسن كما رسمه فؤاد حداد فى مسرحيته «الشاطر حسن». وربما كانت الشخصية التى يستلهمها الكاتب من التراث ليست بذات قيمة فنية أو جمالية، إذ لم تصنع من حولها الأساطير والأشعار، ولكنها عندما تنتقل إلى عالم الكاتب تكتسب عندئذ قيمتها الفنية. وهذا ما فعله فؤاد حداد كذلك فى شخصية «المسحراتى». ويكفى أن يكون المسحراتى شخصا مرتبطا بقيمة دينية، ويكفى أن تكون مهمته أن يوقظ الناس من سباتهم لكى يجد الشاعر فى هذه الشخصية المرتبطة بهاتين القيمتين معا رمزا للبطل الذى يلف ويدور ليوخط الناس من سباتهم ويذكرهم بأحداث من ماضيهم تارة، ومن حاضرهم تارة أخرى، حتى يعوا ما يمكن أن يحدث فى المستقبل. وعندئذ يصبح النص معدا، شأنه شأن النصوص الشعبية الأخرى، لأن يستوعب من الإضافة ما لا حصر له، كما يصبح النص مفتوحا لأن يستقبل فى بنيته اللغوية من التناص ما لا حصر له. ولقد احتفظ فؤاد حداد بإيقاع لغة المسحراتى المناسبة لإيقاع (الطبلية)، كما احتفظ بجملها الأساسية، ثم حشا هذا الإيقاع وتلك اللغة بنبض الحاضر وقلقه.

مسحراتى
منقراتى
أنا بسحر
المبعوثين
أولاد يارب
فى ألمانيا غرب
وألمانيا شرق
متأسسين
يسلم لى عوده
الواد أمين
بدأ الرسالة
بـ « نستعين »
وتم قال
حبلى متين
أخبارى سارة
أنا خذت ذرة
ونظام مجرة
ومهندسين
أنا بذاكر
طول عمر فاكر
وطنى ودين
فى المغربية

تتمد يَّيه
إيدى اليمين
لولا فراقنا
أنا مش حزين
بافطر معاكم
واسمع دعاكم
أمين أمين
مأشرين إلا
الماء والإ
فى قزاز ياسين
وختام كلامى
أبعث سلامى
للأجمعين
نحن نلقن
العلم الحقا
وكويسين
والدق على طبلى
ناس كانوا قبلى
قالوا فى الأمثال
«الرجل تدب مطرح متحب»^(١)

وبعد، فاليس البطل حقاً مخلوقاً من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون؟

(١) فؤاد حداد «المسحراتى» الهيئة العامة للكتاب، ١٩٦٩، ٢٢، ٢٣.